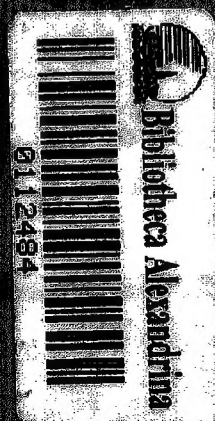
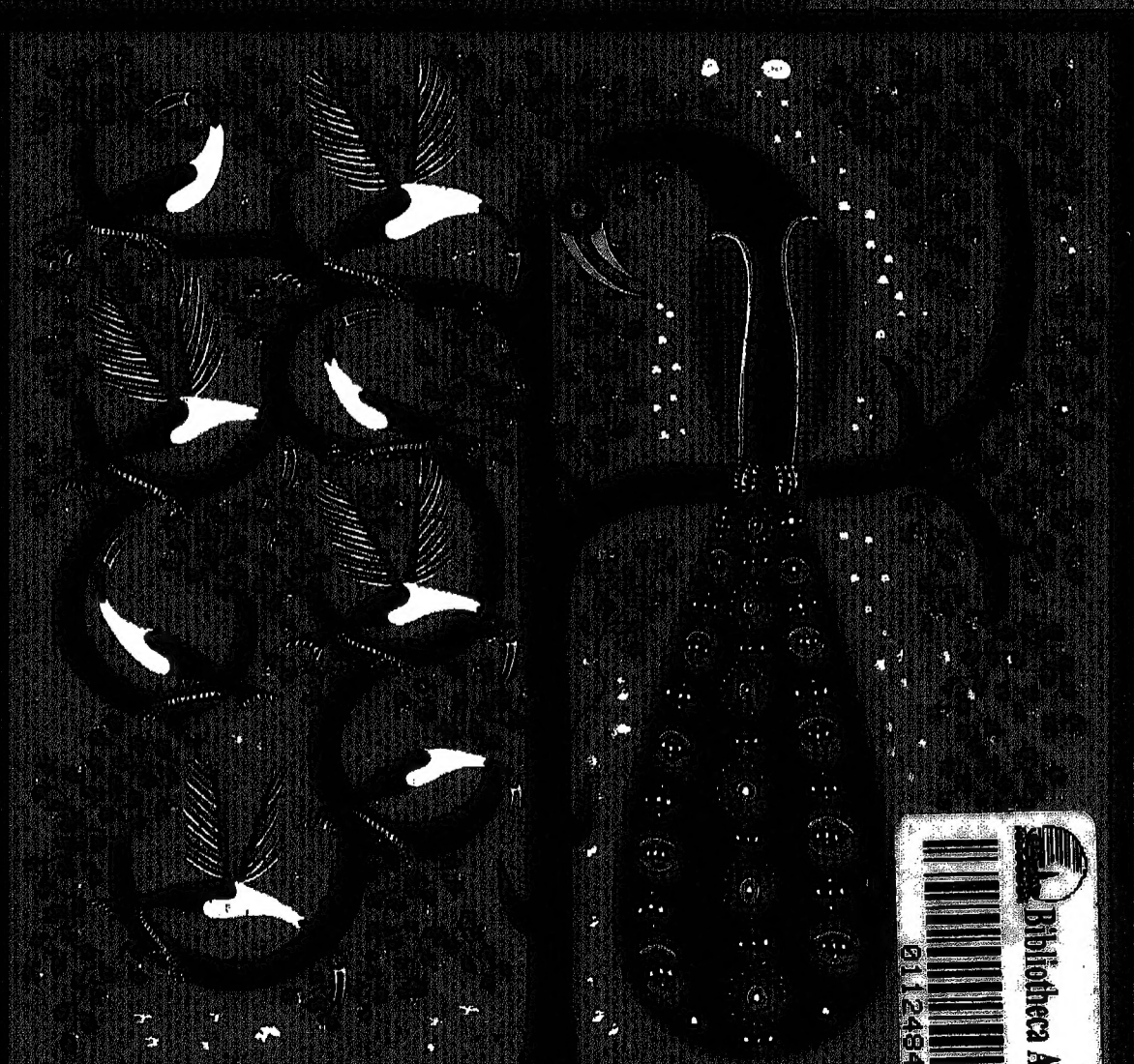


الهادي المبروك الدالي

المحرران

# أدب أفريقيا فيما وراء الصحراء



دار صنين للطباعة والنشر والتوزيع



**من روائح أدب أفريقيا**  
**فيما وراء الصحراء**



13338

892.709

96  
J1.5  
13

# من روائع أدب أفريقيا فيما وراء الصحراء

الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية	
رقم التصنيف	892.70996
رقم التسجيل	٤٣٥١



General Organization of the Alexandria Library (GOAL)  
Bibliothèque générale d'Alexandrie

DL

جمع وتقديم وتعليق  
الهادي المبروك الدالي

الطبعة الأولى  
1996

الناشر:  
دار صنين للطباعة والنشر

بيروت - لبنان

## بسم الله الرحمن الرحيم

### المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله الأمين،

وبعد، فقد كانت أول إطلالة لي على الأدب الأفريقي في عام 1985 م عند زيارتي لأفريقيا فيما وراء الصحراء، ولا سيما جمهورية مالي، فكانت لقاءاتي مع أدباء تلك المناطق في ليالي تنبكت وجاو المقمرة وعلى رمالها الذهبية الساحرة، سبيلاً للحديث عن أدب الصحراء وتنوع ينايحه وأغراضه وعربيته، كما وأنه مستمد قوته من شعر ما قبل الإسلام، ومن بطولات الآباء والأجداد في هذه المنطقة من أفريقيا، فأحسست بحنين يشدني، وعزة ترقى بي إلى عنان السماء. كما توصلت إلى معلومات غاية في القيمة، تؤكد الامتداد الطبيعي والحضاري لأبناء القارة الواحدة.

وكم كنت متعطشاً لمثل هذه المعلومات، ومن حسن حظي أن جمعتني الله بنخبة من أدباء ومؤرخي السودان الغربي (غرب أفريقيا)، ففي مدينة جاو التقيت بالعاليم والأديب الجليل محمد الطاهر العلوي، مدير مدرسة سبيل الإسلام لتعليم اللغة العربية والقرآن الكريم، ومدير دار معمر القذافي لجمع التراث العربي الأفريقي. ونزلت ضيفاً عليه وقد استفدت منه كثيراً ورافقني

في رحلاتي الصحراوية، التي كانت فرصة ذهبية شرح لي فيها عن كل منطقة مررنا بها.

كما التقيت في مدينة تنبكت بنخبة من أدبائها وعلى رأسهم الدكتور محمود الزبير مدير مركز أحمد بابا التنبكتي، والأديب وشاعر الصحراء عادل محمود الأرواني، الذي يعدّ أديباً من الطراز الأول اطلعت على جزء من أشعاره. إضافة إلى ذلك التقيت في باماكو بالأديب كاكي درامي، فكان خير معين لي.

هؤلاء الأصدقاء وغيرهم من الأحياء حفوني برعاية خاصة على رمال الصحراء الذهبية، وتجاذبنا أطراف الحديث عن التاريخ المشترك، وأخذوا يضربون لي المثل بالقبائل، العربية الليبية والمغربية التي لها امتداد في جنوب الصحراء وجزء من أبنائها معي يمتعونني بأحاديثهم الطريفة على الامتداد الطبيعي لأبناء القارة الواحدة، ثم إلى المآثر الحضارية العربية. ويشير لي الأصدقاء بأصابعهم إلى حي الغدامسية، القريب من جلستنا الشاعرية، وإلى قصبة المغاربة، وجامعة سنكري التي شيدتها أيدٍ ليبية مغربية على الطراز المغربي الإسلامي.

كم كنت فخوراً بهذا الامتزاج الحضاري وحزيناً في نفس الوقت، على هذا الانقطاع بين أبناء القارة الواحدة، ذات التاريخ والعادات والتقاليد المشتركة، وكم تمنيت في قرارة نفسي أن يعود بي الزمن إلى الوراء قليلاً لأتأمل، ولو للحظة واحدة تلك الفترة الزاهرة من تاريخ هذه القارة.

إن أفريقيا بكر للدراسات، سواءً كانت تاريخية أم أدبية أم علمية، فهي لم تحظ من قبل أبنائها بدراسات معمقة اللهم، إلا شذرات لا تشفي غليل الباحث، وتراثها الثقافي تلتهمه أرضة الأرض في بيوت أهلها المبنية بالطين دون أي اكتراث من قبل حكامها وأبنائها! ورجل الصحراء يبحث عن قوته اليومي في ظل الفقر الذي فرض عليه، ولا وقت له للبحث عن التراث



الثقافي، الذي يضيع يوماً بعد يوم. وبالرغم من المحاولات الجادة لمركز أحمد بابا التنبكتي بمدينة تنبكت، ودار معمر القذافي لجمع التراث العربي الأفريقي بمدينة جاجو، إلا أن حجم العمل أكبر من ذلك، فالإمكانيات المتواضعة لهذين المركزين غير كافية للنهوض بالواجب المنوط بهما.

والدارس للتراث الأفريقي يلمس حقائق تؤكد أصالة وامتدادات الشعوب الأفريقية واتصالها ببعضها، والتاريخ والعادات والتقاليد المشتركة، فلا نلمس فرقاً كبيراً في الأدب الشعبي الليبي والمغربي عما هو موجود في جنوب الصحراء، فالإيقاع واحد والكلمات تحمل نفس المضمون وإن اختلفت المقاصد، والذي يتغنى به الشاعر الليبي يتغنى به شاعر تنبكت وجاجو وجن واقدز وكانم ويرنو.

وربما نجد في اصطحاب الملك منسا موسى ملك مالي في القرن الرابع عشر الميلادي للمهندس الليبي عبدالله الغدامسي وبناءه بصحبة المهندس أبي إسحاق الساحلي جامعة سنكري على الطراز المغربي الإسلامي، ووصول المهندس الليبي عبدالله الغدامسي إلى أرفع المناصب لدى سلطان مالي بأن أصبح مستشاره الأول، ما هو إلا دليل على مكانة العرب الليبيين في نفوس حكام وأبناء جنوب الصحراء، وما كان عليه هؤلاء من الحكمة والعلم والدراية حتى أصبحوا مستشارين لهم.

بالإضافة إلى ذلك إسلام ملك غانة الوثني ورعيته على يد الداعية العربي الليبي علي بن يخلف النفوس عام 1157م دليل آخر على عمق الصلات، وتبحر أبناء ليبيا في العلم وقدمهم من بيئة ذات حضارة زاهرة، كذلك دراسة الحسن الوزان المعروف بليون الأفريقي والذي يُعد كتابه وصف أفريقيا أعجوبة عصره، وبواسطته دخل الأوروبيون إلى غرب أفريقيا في القرن الخامس عشر الميلادي، ولجهلهم كانوا يطلقون عليها القارة المظلمة، كانت دراسته الأولى في فزان بليبيا.

إن كل الشواهد الدامغة على الامتداد الطبيعي لأبناء القارة الأفريقية المسلمة تدحض افتراءات الأوروبيين المستعمرين ومحاولاتهم طمس هذه المعالم زاعمين أن سبب تأخر الأفارقة هم العرب. ولكن كلمة أقولها: نحن أبناء هذه القارة يربطنا مع بعضنا تاريخ وعادات وتقاليده ولغة، فأربعون في المائة من اللغات الأفريقية: الفلانية والهوسا والسوحلية عربية المفردات، وعلى ذلك فلسنا دخلاء على أفريقيا، فأفريقيا للأفريقيين ولا حلف لأفريقيا إلا مع نفسها.

إن هذه الدراسة التي بين أيدينا تدرج، ضمن سلسلة من الدراسات التي أقدمها عن منطقة غرب إفريقيا. فهذه أشعار لأدباء أفارقة كتبوها باللغة العربية، منهم من ينحدر من أصول ليبية، وهي تؤكد عمق الترابط الحضاري وتجذر اللغة العربية بين أبناء تلك المناطق، فالعروبة أسبق من الإسلام هناك.

وأستسمح القارئ إغفالي المتعمد لأحد فنون الشعر الصحراوي الذي هو الغزل لحاجة في نفسي.

وكلمة أخيرة أقولها للشباب الأفريقي: يا شباب أفريقيا الناهض الوثاب، قُم من سباتك، وكسّر القيود، وحطّم الأغلال، وتسلّح بسلاح العلم والإيمان، حتى تعود بقارتك إلى شاطئ الأمان قبل أن تغرب نهائياً، وإن الصحراء دائماً منبت للرجال الأشاوس أصحاب القيم والأخلاق النبيلة.

الهادي المبروك الدالي

1995/6/22م

# الفصل الأول

## شجر الحماسة



## شجر الحماسة

هذا اللون من الشعر تغنى به شاعر الصحراء، عندما بدأت طلائع الاستعمار الفرنسي تقترب من بلاده، فالشاعر كان لسان قومه، وهو الذي يرشدهم ويحذرهم من أي مكروه، فقصيدة الشاعر عثمان بن حولن الأنصاري يحذر فيها أبناء جلدته من التعامل مع الاستعمار الفرنسي، والثقة فيه.

عند دخول الفرنسيين إلى أرض السودان الغربي، أخذوا يعيشون في الأرض فساداً، ويتظاهرون بأن مجيئهم إلى تلك الديار له هدف نبيل، وشريف، وهو إخراج أبناء هذا الوطن من الجهل والمجاعة والتخلف، وتخليصهم من قيود الإسلام إلى النصرانية، ويخاطبون الأفارقة بأن السبب المباشر في تخلفكم هم العرب الذين ارتبطتم بهم لفترة من الزمن، ومكنتموهم من أنفسكم، ونصبتموهم حكاماً عليكم، واعتنقتم دينهم، وهم السبب المباشر في تأخيركم ونحن، (أي الفرنسيين) أتينا لإنقاذكم مما لحقكم من جهل وتخلف، فكأن الجهل والتخلف مكتوب على العرب.

ولكن أهل السودان الغربي كانوا متيقظين لهذه الأقاويل التي لا تنبئ إلا عن حقد دفين. وظهر شاعر الصحراء معرياً كافة ألاعيبهم حيث يقول لهم في هذه القصيدة، إن ما ترمون إليه كله معروف عندنا، ويحذر أبناء وطنه من التعامل مع المستعمر والثقة في كلامه. ويطلب منهم أن يكونوا

يداً واحدة ضد العدو، وأن يكروا عليه كرة رجل واحد، ولا يتنازعا  
فتذهب ريحهم. والشاعر الصحراوي، يأتي لهم بأمثلة من الطبيعة المحيطة  
بهم ويذكرهم بقصة الأسد مع ثيرانه وأن يأخذوا العظة والعبرة من ذلك،  
ويحذّرهم من أن يُعود الاستعمار كلها كاذبة وخادعة، وإن الجهاد يقوم  
به المسلمون فهو طريقهم إلى النصر، ومن لم يستطع مقارعة الأعداء فعليه  
بالهجرة بدينه حتى لا يتعرض لضيم المستعمر. وشبّه الشاعر المستعمرين  
بالأفاعي، حيث يبدو الشاعر مثقفاً دينياً وأديباً فهو يستمد شعره من صور  
شعرية بديعة.

وله قصيدة أخرى يهجو فيها الخونة المتعاونين مع الفرنسيين. ثم  
يمدح أميرهم اللود الأنصاري في قصيدة ثالثة.

### قصيدة عثمان بن حلون الأنصاري

من بحر الكامل:

متفاعلن متفاعلن متفاعلن

متفاعلن متفاعلن متفاعلن

وَمَنْ يُحْكَمْ كَافِرًا فِي نَفْسِهِ	لَا غَرَوْ أَنَّ بَاءَ بَشَرٍ مَقْتَلٍ <sup>(1)</sup>
كُتِبُوا عَلَى الْعَدُوِّ فِي اللَّهِ يَدًا	فِيهِ الثَّنَائِعُ لِرُؤْمِ الْقَشَلِ
بَلْ قِصَّةُ الْأَسَدِ مَعَ ثِيرَانِهِ	فِيهَا لَكُمْ ذِكْرٌ وَضَرْبُ مَثَلٍ
فَالضُّيْعَمُ الضَّيْعَمُ يَا مَنْ رَامَ أَنْ	يَسْرِيَ فِي اللَّيْلِ الْبَهِيمِ الْأَثِيلِ <sup>(2)</sup>
وَعَدُ النَّصَارَى كَذِبٌ وَعَدْلُهُمْ	جُورٌ وَمِيرُهُمْ وَخَيْمُ الْمَأْكَلِ
لَا تَرَأَى نَارَ مُسْلِمٍ وَكَأَنَّ	فَرَنْهَى عَنْ ذَاكَ خَيْرٌ مُرْسَلِ
وَسِلْمُهُمْ حَرْبٌ وَبَذْلُ مَالِهِمْ	يَقْلَبُ بِالْمَكِيدِ وَالْثَّحِيلِ
وَالسُّمُّ فِي جَوَارِهِمْ وَقُرْبُهُمْ	وَمُسْلِمٌ بِنَارِهِمْ لَا يَصْطَلِي
وَمَنْ يُوَالِ الْكَافِرِينَ فَهُوَ مِنْ	وَلَايَةِ اللَّهِ لَهُ بِمَعَزَلِ
وَكُلُّهُمْ الدِّينُ إِلَى مَنْ دُونَكُمْ	مِنَ اللَّصُوصِ بئس شَأْنُ الْوَكْلِ <sup>(3)</sup>
إِنَّ الْجَهَادَ ذُرْوَةُ الْإِسْلَامِ لَا	يَبْغِي بِهِ بَاغِي الْهَدَى مِنْ بَدَلِ
هَلْ تَكْرَهُونَ فِي الْجَهَادِ أَحَدًا	حَسَنِينَ جَنَّةَ وَنَقْلِ

(1) باء: رجع

(2) اللَّيْلِ الْأَثِيلِ: الشديد الظلمة.

(3) الوكل: العاجز.

كن هجرةً على الضعيف الأعزل  
خير من العدل مع الكفر الجلي  
تقديمها حتماً فراع الأفضل  
سبيله سعة عيش مخضل<sup>(1)</sup>  
متاً وفي العهد تفضّل  
في جنة الفردوس خير نُزُل<sup>(2)</sup>  
وهل له من راعٍ مُتثل  
بين الأفاعي والأشود البُسل  
علج عنيف أعجم مُستثقل  
مُجسّم مُشبه مُعطل  
خُبث ولا يدين دين الرُسل  
خالقه في نية وعمل  
بين يديه مظهر التذلل  
مُنّ يُعافي من يشأ ويبتلي  
بى العقل والشرع بذلك المنزل  
نرجو قبولها إذا لم تُقبل  
وآله أهل المقام الأكمل  
رُوق وعثمان ومولانا علي

على القوي كُتب الجهاد لـ  
والجور والإسلام في بلادنا  
مصلحة الدين على الدنيا يرى  
والله ضامن لمن هاجر في  
ضمان قادر كريم مُوسر  
وهاربٍ بدينه شبراً له  
فإن يمت فضمة سلفه  
والموت خير للفتى من مقعد  
وكونه تحت خبيث مشرك  
مُناسب لربه مُثلث  
لا يتقي النجس ولا يستاك من  
يسومه سوء العذاب كُلّما  
وإن دعا لبي وقام ماثلاً  
هذا هو البلاء نرجو عظمة  
تأبى المروءة لأهلها وياً  
ها إن ذي نصيحة من ربنا  
صلّى إلّٰهنا على مُحمّد  
وخلفائه أبي بكر وفا

\*\*\*

(1) عيش مخضل: ناعم.

(2) نزل: ثواب.



وللشاعر عثمان بن حوالن الأنصاري قصيدة يهجو بها الخونة  
المتعاونة مع الفرنسيين ويمدح أميرهم اللود الأنصاري.

### القصيدة هي من البحر البسيط

مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن

مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن

مَا بَيْنَ مُبْتَدَأِ أَمْنُهُ وَمُخْتَلَمِ	رَاحَ الزَّمَانُ بِأَمْرِ مُبْرَمٍ هَمِّ
وَفَقَدْنَا دِي الْكَرَامِ السَّادَةِ التُّجَمِ	بَيْنَ الْأَحْبَةِ وَالْأَوْطَانِ أَوْدَمِ
وَبَرَبْرِ رَوْضَةِ الْعَرَبَاءِ وَالْعَجَمِ <sup>(1)</sup>	وَدَارَ عَزَّةٍ مِنْ هَيْنٍ إِلَى فَرْشِ
لَوْ كُنْتُ تَعْلَمُ مَا فِي الْقَلْبِ مِنْ هَمِّ	يَا لَأَتَمِّي لَا تَلُمُ فَالْقَلْبُ مُحْتَرِقُ
وَالْقَلْبُ لِلْحَزَنِ وَالْأَوْصَالِ لِلسَّقَمِ	وَحَقُّ جَفْنِي يُسِيلُ الدَّمَغَ مِنْ جَزَعِ
فَمَا ارْتَضَى الْبَثُّ بِالذُّمُوعِ دُونَ دَمِ	وَالْعَيْنُ تَدْمَغُ مِنْ شَهْرِ إِلَى سَنَةِ
عَنْ مَنْزِلِ بَجْنَابِ الْهَيْنِ مِنْهُمْ	يَا قَائِمًا بِحَذَا عَزُّ أَعْدُ خَبْرًا
بَيْنَ الْوَحُوشِ وَبَيْنَ الرِّيحِ وَالذِّمِّ	وَمَعْدَ قَسَمِ الْفَقْدَانِ أَرْبَعَةَ
مَوَالِيعِ النَّوْقِ وَالْأَتْبَاعِ وَالْخَدَمِ <sup>(2)</sup>	وَكَانَ مِنْ قَبْلُ وَسْطَ الْحَيِّ كَرَكْرَةَ
دَمٌّ يَرَأَى بِغَيْرِ الْجَرَحِ وَالْكَلِمِ	وَقَدْ أَرَأَقَ فِرَاقِي مِنْ دِمَاءِ فِكَمِ
وَعَدَ الْفَرِيقِ وَطَوَّلَ الْبَيْنِ وَالْهَمِّ	وَكَمْ حَلِيمٍ شَدِيدِ الصَّبْرِ تَيْمَةً
يَهْمِي بِمَنْهُمْ فِي الرِّوَضِ مُبْتَسِمِ <sup>(3)</sup>	حَيَّاكَ يَا دَارَ عَزٍّ مِنْ هُنَاكَ حَيًّا
مِنْ مُورِقِ أَنْقِ الْأَوْرَاقِ مُلْتَمِ <sup>(4)</sup>	عَنْ نَغْرِ زَهْرٍ بَنُورِ التَّوْزِ مَبْتَهَجًا
مُخْرَرًا مِنْ أَتْيِ الْمَاءِ مُنْسَجِمِ <sup>(5)</sup>	حَتَّى غَدَا كُلُّ نَجْدٍ فِي مَحَاجِرِهَا

(1) هين وفرش: موضعان، بربر روضة: مقابر الأنصار.

(2) الكركرة: الجماعة، والموالع: جمع مالة أي مسرعة.

(3) يهمي: يصب.

(4) التوز: نوع من الشجر يكثر بصحراء السودان الغربي.

(5) المحاجر: الحدائق، والمخر: المصوت، والخريز: صوت الماء، والأنى السيل.

ضفادعُ الرّوضِ في النقيقُ من أُمِّ<sup>(1)</sup>  
 عن السّميرِ وعن أهلِ وعن رَحِمِ  
 لَعَسَاءُ في شفتيها حُوءُ الأدمِ<sup>(2)</sup>  
 عنها اليوشاخِ وتمّ الطبعُ في الكرمِ<sup>(3)</sup>  
 فَوَقَّ الجبالِ وبينَ البحرِ والأكمِ  
 كَأَنَّهَا قريّةٌ من كثرةِ الأُممِ<sup>(4)</sup>  
 وتخرجُ العينُ من وجهِ إلى قدمِ  
 آثارها وحنينِ البُعدِ كالعدمِ  
 تملُّلِ ما شجى صدرِ بمُتَّهِمِ  
 مُقيمةٌ خدرها المضروبُ في الخيمِ  
 شجا الفؤادِ بنارِ الوجدِ مضطربِ  
 يا ديمةُ خَرَجَتْ في أحسنِ الدّيمِ  
 حبّ الفؤادِ بسهمِ العينِ مُبرهمِ  
 حبائلِ آخذاتِ الرأسِ والقدمِ  
 حتّى أذابتِ به الأعضاء من ألمِ  
 نُخبازِ حُسينِكَ في الفَيَقَاءِ والأُطَمِ<sup>(5)</sup>  
 نُورُ كبهجةِ نورِ البدرِ في الظلمِ  
 حسنِ الطّبائعِ من حلمِ ومن كرمِ  
 فريقتُ عِزّةِ بينِ الشُّوقِ والهممِ  
 إلّا بدمعِ على الخدّينِ مُنْسَجِمِ

والطير تغرّد والأغصانُ لاعبةٌ  
 تلك الفتاةُ التي يلهو بها أحدُ  
 كحلأ في سعةِ العينينِ واضحةٌ  
 عجزاءُ ممكورةٌ براقّةٌ قَلِقُ  
 كم من خليلِ وزيرِ مُصعِدِ عُذْرًا  
 إلى ذراها يزورُ من تأثفها  
 تزدادُ للعينِ إبهاجاً إذا ذهبتِ  
 وكم أحنُّ حنينِ الثاكلاتِ على  
 عساكٍ إنْ مَتَّ في ذكراكِ مَتَّ على  
 لما تذكركُ يومَ السدرِ نازلةً  
 ونظرةً سَلَبَتْ قلبي فَطَانَتْهُ  
 زُدِّي بقيةِ روحِ فاتِ من رمقي  
 سحارةُ الطرفِ ترمي من محاسنها  
 وأرثي لقلبي بما في سحرِ عينكِ من  
 ورُبِّ شوقي مُذِيبِ لي إليك مَضَى  
 وصفكُ حالِكِ للعشاقِ فارتفعتِ  
 وتحتَ سَقْفِكَ شخصٌ عَنْ ظواهرِهِ  
 خلفِ الخمارِ جمالٌ قد تخامرُهُ  
 عواطلُ الشَّرَبِ ترعى في مرَاتعها  
 وَمَا رَغَى من هواها إذ تذكّرُهَا

(1) النقيق: صوت الضفادع، والأُم: القرب.

(2) اللبس والحوة والأدمة: حمرة تميل إلى السواد.

(3) الممكورة: المرأة ذات الساق الغليظة.

(4) تأثفها: اكتنفها.

(5) الفيقاء: الفلاة.

وقد أفاق من الأحزان بالحلم  
له فهشّ وذأوى القلب من سقم  
بكلّ مكرومة الأخلاق في الذم  
فوق اللذات بحسن الخلق والشيم  
أتباع صدق من الأحرار والخدم  
كواكب من قلائد ومن ظرم  
أضبيته وهوى وهم باللم  
ترى النجوم ولا بدرأ على الأطم  
منه غروق الهوى العذري من رام<sup>(1)</sup>  
بعد النوى بصوار الظبي والذم<sup>(2)</sup>  
كأنها حططت عن أملى الأدم<sup>(3)</sup>  
أو الجواذر من مور ومن هدم  
سواهك الرّيح والإعصار والرّكّم<sup>(4)</sup>  
فما بها من طبيب السقم والألم  
سرب القطا وصواظ الظبي منهيم  
مواكب الخيل والشعاع والرّكّم  
بنظرة العين أو بكلمة بقم  
يا ليتني ذاك لم أشهد من أم  
والشوق البسني درعاً من السقم  
والهم أترع من رأسي إلى قدمي

كم من قتيل الهوى العذري في بلدي  
لما تصوّرها للعين في سنة  
حيالك ربّ الوزي في كلّ آونة  
وأصبحت في نساء الحي ظاهرة  
وفي الحذور بُدور قد تأثفها  
يمشين مشي الطباء عن حناجرها  
كم من فقيه نبيه زاهد وريح  
لكن إذا طلعت شمس للنهار فلا  
كم عاقل رمته فانفجرت  
وقد تسليت عن تجريح يا كمدي  
ودمنة نسفت عنها الصبا سفعاً  
لعياً بلعي ترى الأثافي كائمة  
بين الأطوم طويلاً ما تعاقبها  
فبدل الأنس وحشاً والمنى كمداً  
فبتّ ولهان في ربع تقسمه  
وكان من قبل طال ما تكركره  
وكلّهم لذى عزّ يطالبها  
وصير الدهر ذاك شذراً مذراً  
يا لائمى لا تلّم والتّصحّ يخبلني  
والبتّ أمريضني والحزن أرقني

(1) الرّام: الحب.

(2) الصّوار: القطيع من بقر الوحش.

(3) نسفت: أزال، وسفعاً: رماداً.

(4) الشواهك: جمع ساهكة، الرّيح العاصفة.

والبين أولهني والدهر كابدني  
 من بين عزّة والدُموع تشهد لي  
 تلك الفتاة التي علّقها عَرَضاً  
 كم من فلاة مهيل ظهرها غَشِيَتْ  
 فلا ترى العين إلا ما يُخَوِّفها  
 لكن ترى الوحش في بحر الفلاة رَعَتْ  
 أُمْسِيَتْ فيها أمّج البقل من عطش  
 ولا أعاقب عن ظهر الفلاة سوى  
 وزهمة ملأت عيني من رشق  
 إذا تَلَأَّت البروق فاندفعت  
 فألجأتني إلى الأشجار مُتَّخِذاً  
 أنخت وهمي وما إن نِيَخَ من تعب  
 ترى الزواياك عن أعلى طريقيها  
 كأنما فُلِقَتْ عنها ببلقة

يحمل وجد قصيم الظهير من دقم<sup>(1)</sup>  
 ما بين مُنهمر مِنّي ومُضطرم  
 ما مثلها في نساء العرب والعجم  
 وجهي بأهوال الجوّ والشَّبَمِ<sup>(2)</sup>  
 كالثرس في شبه والبحر في طَمَمِ<sup>(3)</sup>  
 وجدجداً بدل الحيتان والبلَمِ<sup>(4)</sup>  
 إِبَّانَ قيظ مكان الماء والرخمِ<sup>(5)</sup>  
 سرب الظبا وقطاً وهيقيم صَتَمِ<sup>(6)</sup>  
 وسط الفلاة ولا أحس من رنَمِ<sup>(7)</sup>  
 شأب القطر عن رأسي إلى قدمي<sup>(8)</sup>  
 أكنافها بَدَل الأبيات والخيم  
 لكن لجميل غرابيب من الدِّمِ<sup>(9)</sup>  
 ما بين مستتر عني ومُقتَحِمِ<sup>(10)</sup>  
 حناظل القيظ أو جماجم البهمِ<sup>(11)</sup>

(1) الدقم: الضرر.

(2) مهيل: مفزع، والشبم: البرد.

(3) الثرس: المعجن.

(4) الجدجد: نوع من الجراد يكثر بالسودان الغربي ويلتهم المزروعات، والبلم: صغار السمك.

(5) الإبان: الوقت، والرخم: اللبن غليظ القوام.

(6) الهيقيم: الظليم الطويل، والصتم: الشديد.

(7) الرهمة: المطر الضعيف والمستمر في النزول، والرنم: الصوت.

(8) الشأيب: جمع شؤبوب، دفعة من المطر (شبوب).

(9) الوهم: الجهل، الدلول: ذو الجسم الضخم والقوي، والغرايب السود والديم: الأمطار الدائمة.

(10) الزواياك: التي تسيّر الزنك نوع من السير ويريد بها النعام.

(11) البهم: صغار الغنم.

- كأنَّ أعناقُها كُراس سائفة  
شُخْتُ القوائم لا مأوى لها أبداً  
ترى الظِّلِمَ تُحاذيه نَعَامَتُهُ  
حتى إذا ما استوى عن ربوة نظراً  
فارقدْ من تحتِ عِراضٍ ويطرُدُهُ  
تتبَّعه صعلَةٌ خرجاءُ تطرُدُهُ  
فكلُّ ما انحدرًا في طلقِ شوطهما  
لا يأمنانِ ذئابَ الدَّو أو غرقاً  
والخرقُ دون بنات البيض مُنتهبُ  
لا يذخرانِ من الإيغالِ باقيةً  
صدعُها لذرى عزٍّ على جملٍ  
يشكو الخشاشَ ومجرى السعتين إذا  
لا تُشتكي عُثْرُهُ منه وقد قُطعتْ
- أفواهُها كَصُدُوع النبع والرسمِ<sup>(1)</sup>  
إلا الدَّهاسُ عن الأحقافِ والهومِ<sup>(2)</sup>  
يلهيهِ ماء ومرعى الدَّو عن أكمِ<sup>(3)</sup>  
وَشَام أفرخه وخاف من رُكَمِ<sup>(4)</sup>  
سواهِك المور والإعصارِ والنَّسمِ<sup>(5)</sup>  
مراً تُسابقُهُ في الجري والنجمِ<sup>(6)</sup>  
تبادرا ماطرًا بالجري كالضُّرمِ<sup>(7)</sup>  
إن أغلَسا دُونَ زُعرٍ تُحرق التلمِ<sup>(8)</sup>  
كما تناهبُ أَشدُّ ثلَّة الغنمِ<sup>(9)</sup>  
حتى تكاد تبينُ الريشُ عن آدمِ<sup>(10)</sup>  
وهم يُباري نسيَمَ الأيئقِ الرُّسمِ  
ما شدَّه حشمي بالكورِ والولمِ<sup>(11)</sup>  
به المفاوزُ والفيافي بالسَّعمِ<sup>(12)</sup>

- (1) الصدوع: الشقوق، والنبع: شجر يكثر في السودان الغربي وربما يقصد به شجر النبق، والوسم: جمع وسم، نوع من النبات.
- (2) شخّحت القوائم: رقيقة القوائم عارية من اللحم، والدهاس: الرمل الرقيق.
- (3) آلاء: ثمر شجر، والدَّو: الفلاة.
- (4) شام: نظر.
- (5) أرقد: أسرع، والعراض: المطر الشديد.
- (6) الصعلة: الصغيرة الرأس، وصرعاء: فيها بياض وسواد، والنجم: سرعة الانصراف.
- (7) ماطرًا: أي سحاباً والضرر والحريق.
- (8) اغلَسا: اظلما، وزعر: قليلا الشعر.
- (9) الخرق: الفلاة الواسعة، والثلَّة بالفتح: القطعة من الغنم.
- (10) الايغال: الإسراع، والأدم: الجلود.
- (11) الخشاش: ما يجعل في أنف البعير ليشد فيه الزمام، والكور: الرجل، والولم: حزام الرجل.
- (12) السعم: ضرب من السير وحركة للضرورة. والفيافي لو استبدلها صاحب القصيدة بالبيداء لكان أفضل.

كأنه عاسجاً أو واسجاً أبداً  
 أمسى يشوق نحائصاً مُحملجةً  
 وبينما هو يلهو في مأكله  
 والحقب تتبعه في الرعي لعبةً  
 إذ مُقنص بين حقيه ومركزه  
 فارقد من فرقي بالجري منحدرأ  
 وصاحب الصيد حيال لبغيته  
 مقرع أطلس الأثواب ليس له  
 يُغري مهرته الأشداق ضاربةً  
 كأن راكبه حقم بمنحدر  
 يخدي بمنخرق الأثواب مُنصلت  
 أخي تنائق والضبان وقعته  
 هاجت لها جوع في الأيك ضاربةً  
 من البراة طويلاً ما تكررها  
 وثب المسحج بين العصر والغسم<sup>(1)</sup>  
 يرعى بهن فئات البقل في اليهم<sup>(2)</sup>  
 من الحناظل والتثوم والعنم  
 دهرأ طويلاً وما سمعن من رنم<sup>(3)</sup>  
 أغرى به جوعاً في القرب عن أكم  
 جرياً تكون به الأحجار كالرّم<sup>(4)</sup>  
 ألقى أباه بذاك الكسب في القدم  
 إلا الضراء وإلا الصيد من نعم<sup>(5)</sup>  
 زرقاً مخصرة من شدة الهضم<sup>(6)</sup>  
 تخدي بها دفعات المور والرّم<sup>(7)</sup>  
 لأجل فرط ركوب الحرّ والشبم  
 كحسو حقم على الأنشاج والذلم<sup>(8)</sup>  
 شواذب من طوى الأجواف والقرم<sup>(9)</sup>  
 في الأيك لطخ من الأمطار في الديم

(1) عاسجاً: مادأ عنقه، واسجاً: مسرعاً، والمسحج: المعضض، والغسم: الظلمة.

(2) نحائص مُحملجة: مفتولة شديدة، واليهم: البرية.

(3) الحقب: الأثن التي في بطونها بياض.

(4) لو قال فارقد كان أفضل.

(5) مقرع: قليل الشعر، وأطلس الأثواب: أغبرها، والضراء: الاختفاء بالأشجار لصيد فريسة.

(6) الهضم: الضمر.

(7) الحقم: طائر يشبه الحمام يوجد بكثرة في مدينة جنى، وسيقوا، وفندام، إلا أنه يختلف عنه بأن ساقه أطول من الحمام.

(8) التناثف: الفلوات التي لا ماء فيها ولا أنيس. والضبان: الضباب، والوقعة: النومة آخر الليل، والانشاج: مجاري الماء، والذلم: مفيض مصب الوادي.

(9) الطوى: الجوع، والقرم: شهوة اللحم.

والصقر ساج إليها عندما وردت  
طارت إلى الجو والبزاة طالبة  
لا يذخران من الإيغال باقية  
يا صاح غُد عن بكاك الدهر من كمد  
إذ لا ارتجاع لما قد مر من زمن  
وسل عنه لحوز عالم ورج  
له مَنَازِلُ عز من أَلَم بها  
لا يتقي في حذاء أرضه أبداً  
يخرق توسع للعافين نائله  
والعلم سيرته والزهد حرقه  
ما إن أتانا بلاء قد وقفنا به  
إلا ابتدرنا داره نستجير به  
كأن من خش رحباً في منازل  
لئن مدحت كريماً غيرة أضماً  
لم تليه زهرة الدنيا وبهجتها  
له الكرامات والأحوال شاهدة  
لو أنطق الله وحشاً في مراتعها

فبادرتها على الإيغال من أمم<sup>(1)</sup>  
لها على تكم من شدة الوحم<sup>(2)</sup>  
حتى تكاد تفرى الريش عن أدم  
ولا تقولن على ما فات وندمي  
بسفح دمع ولا التعداد والتكلم<sup>(3)</sup>  
غظمطم ملك العرباء والعجم<sup>(4)</sup>  
نفت عليه قتام الذل والهضم  
من استجار به من فجأة الدقم  
كالجود في مني والبحر في همم<sup>(5)</sup>  
والصبر عادته عن جفوة الوجم  
على شفا اليأس من هول ومن عظم  
في صدمة الدهر أو في خيفة الهشم<sup>(6)</sup>  
من شدة الخوف في ركن ومليزم<sup>(7)</sup>  
لكان معنى لمعنى القول والكلم<sup>(8)</sup>  
ولا التفأخر بالأموال والحشم  
ذا الدافع العلم بن الدافع العلم  
لأخبرت بخصوص اللود بالكرم<sup>(9)</sup>

(1) ساج: ساكن.

(2) التكم: سنن الطريق.

(3) التكم: لزوم الشيء والإقامة عليه.

(4) الغظمطم: الواسع الأخلاق.

(5) الجود: المطر الغزير، والجود: الكرم.

(6) الهشم: كسر العظم وحركة الضرورة.

(7) خش: دخل.

(8) الأضم: الحسد.

(9) اللود: هو الممدوح، أمير الأنصار، الذي قارع الفرنسيين إلى أن استشهد.

وما تغيّر أقاليم ولا شيمي  
 كثير<sup>(1)</sup> مقتاً عليه الوزر من دقم  
 لكن أحصص قولاً صادقاً بفمي<sup>(2)</sup>  
 لكنهم نقضوا في العهد والذم  
 واستوطنوا بلد السودان والبرم  
 أغلجها بذل العرباء والرجيم  
 القائمون له من شدة العشم<sup>(3)</sup>  
 في هجره ونسوا وصية السلم<sup>(4)</sup>  
 إلى المآكل تحت الزوم من بلم  
 من شدة الخوف أو من فترة الهضم<sup>(5)</sup>

وكم تغيّر عنه جاهل سفهاً  
 تعساً لمن قال إني عبثه حسداً  
 قلت مقالتي لا بالخوف أو طمع  
 له رجال كرام لا مثال لهم  
 إذ كاشحوا وطن العرباء عن سفه  
 واستأثروا عن الأوطان فأتخذوا  
 الكاشحون لغدر الخل في حضر  
 حتى إذا انصرفوا خاضوا معاينة  
 وقد سبتهم بطون في منازلهم  
 يعاقدون لثاماً في بلادهم

---

(1) من المفروض أن تكون هناك واو: وقتاً لاستقامة الوزن.  
 (2) لو قال «قلت مقالتي بلا خوف ولا طمع» أفضل من عبارة النص.  
 (3) العشم: الطمع.  
 (4) السلم: السلف.  
 (5) فترة الهضم: ضيق العيش



## الفصل الثاني

### الفخر بالقبيلة



## ألوان الشعر

### الفخر بالقبيلة:

شهدت منطقة جنوب الصحراء (السودان الغربي) حروباً قبلية طائفية، فكل قبيلة تنسب نفسها إلى جهة، وهذه الفوارق تجر حروباً بين ما يسمى أنصار الأنصار بن أمية.

ترجع قبيلة الأنصار التي هي الآن ضمن سكان جمهورية مالي، في نسبها إلى الأنصار الذين ناصرُوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، في مواجهة الشرك، وبذلك يفتخرون ويقولون الشعر تمجيداً لهم حيث يقول شاعرهم:

وأنتم من أمية قد ورثتم ونحن من معاذ وارثونا

يقولون إنهم من معاذ بن جبل، وإن كنانة من بني أمية، وأمام هذه البدع التي ما أنزل الله بها من سلطان، فإننا نؤمن بأن الله واحد لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله لا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى والعمل الصالح. كلكم من آدم وآدم من تراب. فالتكريم يكون بالإسلام الذي جاء عن طريق الدعاة، والتجار، لهذه المناطق، أيام عثمان بن عفان، وبمجيئه ترك أهالي السودان الغربي الاعتقاد في ثعابين ووحوش ونار وقمر وشمس وارجار كومي صالح، واعتنقوا الدين الإسلامي الحنيف، الذي

أخرجهم من الظلمات إلى النور.

لقد أزال الإسلام الفوارق الطبقية، من منطقة جنوب الصحراء، واختلطت دماء الفاتحين بدماء سكان الصحراء، وحدث تزاوج بينهم منذ وصول عقبة بن نافع الفهري بجيشه الفاتح إلى ضفاف نهر النيجر، وبالتحديد في منطقة كحل السوق (كيدال)، وتزاوج هؤلاء الفاتحون بالسكان الأصليين، وظهر عنصر عربي جديد يتمثل في قبائل الفلان، الذين يرجعون في نسبهم إلى جيش الفاتح العربي عقبة بن نافع الفهري، والتي جاءت تسميتها من ألفي عسكري تركهم عقبة على ضفاف نهر النيجر، فتزاوجوا مع السكان الأصليين وكوّنوا ما يعرف اليوم بالفلان، والكلمة تحريف، «ألفان» (2000) وليس كما يدّعي اليهود أنهم بقايا من الفلاشة. وقد التقيت بعدد من شيوخهم وشبابهم، في تنبكت وجاو وجن وأكدوا لي أنهم من نسل جيش الفاتح العربي عقبة بن نافع الفهري.

لقد أنجبت الصحراء شعراء تغنوا بأمجاد بلادهم، وافتخروا ببطولتهم، ومن بين هؤلاء الشعراء الذين برعوا في الفخر الشاعر أحمد سالم بن السالك من بني الحاج، وشاعرنا من أبناء القرن الثامن عشر الميلادي، ويقطن بعض من أفراد قبيلته صحراء موريتانيا في النعمة وولاته، والبعض الآخر يسكن مدينة كندام، التي تقع إلى الغرب من مدينة تنبكت، وتبعد عنها بحوالى خمسين كيلومتراً، وتبعد عن قرية لير، أول منطقة حدودية بين مالي وموريتانيا بحوالى أربعين كيلومتراً.

وشاعرنا اشتغل مدرساً للقرآن الكريم واللغة العربية، فكان يدرس طلابه علم النحو، في قلب جامعة الصحراء وهي عبارة عن صيحة مبنية بأوتاد وشجر الطلح، الثابتة وفيها أدوات الشاي، من الطبل، والراد، والمجمار، والكؤوس يفوح برائحته الجذابة، والمدرس يدرس المبتدأ والخبر إلخ.

## والقصيدة، التي اخترنا لكم منها بعض الأبيات، تحتوي على مائتين وتسعة أبيات:

### من بحر الكامل

#### متفاعلن متفاعلن متفاعلن

#### متفاعلن متفاعلن متفاعلن

أم سرْتُ عن شَمْسِ الوُعَى أَظْلَالِهَا <sup>(1)</sup>	أم هلْ صرفْتُ إلى السَّلامَةِ هَمَّتِي
عَزَّ وهجها أم حِرْتُ عن أَهْوَالِهَا <sup>(2)</sup>	أم هلْ عدلت إلى الغنائم في الوُعَى
عند النَّهَابِ حَرَامِهَا وحَلَالِهَا	أم هلْ عَقَفْتُ وكان ذاك سَجِيَّتِي
وَزَجَزْتُهَا عن غِيَّهَا وضَلَالِهَا	وعصَابِي تَغْشَى الحَنَا عَنَّفَتْهَا
أَلْبَسْتُهَا بِكَتَائِبِ أَمْثَالِهَا <sup>(3)</sup>	وكتائبِ شعث عوابِسَ بُسَلِي
ودماؤُهنَّ تَفُورُ من أَكْفَالِهَا <sup>(4)</sup>	ولكم وضَوَّدَت الخَيْلَ عن أهوائِها
صاحت حلائِلُهُ لِيُوسِعَ مِجَالِهَا <sup>(5)</sup>	وطعنَتْ فارسَها المدجَّجَ طَعْنَةً
تَمْكُو فَرَائِضُهُ لَهْتِكَ وَصَالِهَا <sup>(6)</sup>	وَتَرَكْتُ آخَرَ بَعْدَهُ مُتَجَدِّلاً
أوصت حَلِيلَتُهُ بشدِّ خِلَالِهَا <sup>(7)</sup>	وفتحْتُ ثَالِثَهُ المَنَازِلَ ضَرْبَةً

(1) اظلالها: مجرور يالَى محذوفة.

(2) الوهج: لهيب النار، وحرت بمعنى تحولت عنها إلى مكان آخر.

(3) الكتائب: جمع كتيبة، كتيبة من الجيش، كتيبة من الفرسان، وهي تنظيم عسكري. كتيبة وفصيل الخ... وشعت: جمع أشعث: المغبر الرأس، والذي يظهر عليه عناء السفر، والعوابس: هو القطوب، يقولون إنسان عبوس وقطب الجبين.

(4) تفور في أكفالها: تجري في إعجازها، وهو تعبير عن شدة المعركة.

(5) يفتخر شاعرنا بأنه سدّد ضربة قاصمة إلى فارسهم، الذي يحمل أسلحة متعددة، ومنها الرمح والسيف والخنجر. واستطاع بشجاعته القضاء عليه حتى إن زوجته صرخت وبكت زوجها لوسع تلك الطعنة التي لا علاج لها إلا الموت المحقق.

(6) متجدلاً: ساقطاً، صريعاً، من الضربة، وتمكو بمعنى تصفرّ، والفريضة ما بين الكتف والضلوع.

(7) الخلال: ما خلّ به الثوب يصنع من العيدان والحديد أو الذهب ويستخدمه نساء الصحراء ويعتبر جزءاً من الأدوات التي تزين بها المرأة الصحراوية بل تشتترطه العروس عند زواجها. =

والحرب تعلم والمشاهد أنني      مردِي فوارِشها قريعُ نزالِها (1)  
ولكم غَدَوْتُ أمامَ قومي غازیاً      نحو العدا متهيئاً لِقَتالِها (2)  
ولقد نثرتُ كِنانَتي وبلوتُها      وزميتهم منها بُصلبِ نِبالِها (3)  
سُمر السهام مُراشِيةً أغراضَها      لببِ الأعادي غُرْضةً لِنِصالِها (4)  
شُعْتُ على خُوص حنایا ضُمُر      مثل الفُسيِّ قِلاصِها وجمالِها (5)  
يُطوي السهامِه نَصْها وذمیلُها      ودؤوبُ مُرقِلِها على إِرقالِها (6)

= يقول ضربته ضربة أوصت زوجته بشد الخلال من شدة هول الضربة حتى أنها أوصت من بجانبها أن يشد روعها بالخلال لأنها قد تفقد أعصابها حزناً على زوجها.  
(1) يفتخر الشاعر ببطولته، فساحات الرغى تعرفه جيداً بالإقدام ومقارعة الأبطال ومنازلتهم والانتصار عليهم.  
(2) أمام قومي، لقد أصبحت القائد الذي يتقدم صفوف الجيش لغزو الأعداء بكامل استعدادي.  
(3) نثرت كنانتي / الكنانة: ما يجعل فيه السهام وهو الجعب. يقول استخرجت ما فيها من السهام وبلوتها: اختبرتها، والنبال جمع نبل: وهو السهم.  
(4) السمر: التي تضرب حمرتها إلى السواد، مراشة: جعل لها ريش، فالسهم الفتاك الذي تكون ضربته قاتلة ما يكون مقدمه على شكل إشارة زائد فعندما يدخل في جسم الإنسان من الصعب إخراجها، والأغراض بمعنى الأهداف، واللبب: جمع لبث وهي النحر، والنصال جمع نصل.  
(5) شعْتُ: الذي يظهر عليه عناء السفر، والخوص: الغائرة الأعين من طول السفر، والحنایا: جمع حنية: وهي التي انحنت من قسوة السفر، والضمر جمع ضمائر: وهو البعير الذي قطع مسافات طويلاً: يقال ضامر، ويقول رب العزة «بسم الله الرحمن الرحيم وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر من كل فج عميق» صدق الله العظيم (سورة الحج/27) والقلاص جمع قلوص: الفتى من الإبل يقول: تلك السهام الصلب التي رميت بها العدو وهم رجال شعْتُ على خوص قد أزلها السفر وفي هذا البيت افتخار برجال الأشداء الذين يتحملون قطع المسافات الطوال دون كلل لتحقيق أهدافهم المرجوة منهم.  
(6) السهامیه: المقاوز والنص والدميل نوعان من سير الإبل، والأرقال: الإسراع، والدؤوب: الجد والمثابرة. وهنا الشاعر وكأنه يقول اخترنا لهذا اللقاء نوعاً من الإبل تمتاز عن غيرها بسرعتها ولربما قصد بذلك ما يُعرف بالمهري وهو صنف من أصناف الإبل، يمتاز بالسرعة الفائقة والمهري أنواع: منه من يقطع أكثر من ذلك بكثير. وقصة تفاوت قطع المسافات كنت قد سمعتها من والدي رحمه الله منذ كنت طفلاً، والوالدي من عشاق الفروسية. فكان يقص لي =

تُفَرِّى بِهِمْ وَعَرَّ الْجِبَالِ كَأَنَّهَا  
ولدى الرمال كأنها بصصاحص  
بُسلُ مساعر للحروب عوابس  
ثاروا لأخذ الثَّارِ حين ندبتهم  
يمشون في سدف الدياجي في ندى  
لا ينثنون عن الأعادي رهبة  
جاسوا خلال حلالهم حتى إذا  
شنوا عليهم غارة شعواء ما  
وسط الجبال تجوب وعث رمالها (1)  
ولدى الصصاحص كالنعام وزالها (2)  
صبر على محن الوعى ومجالها (3)  
مثل الأسود غدايتها ومحالها (4)  
شبه وصر بارد لنصالها (5)  
حتى تناع ركابهم بحلالها (6)  
لاحت ذكاء على ربي أحوالها (7)  
تركوا بها هبعاً على بئها (8)

= عن الفروسية وصفات الفارس والخيول وأنواعها وأماراتها إلخ. ومن بين قصصه التي ما زالت عالقة في مخيلتي إلى اليوم أنواع: من المهارة، وهي فصيلة من فصائل الابل. تتفاوت سرعة المهري من واحد إلى آخر فالمهري الذي يولد ويبقى باركاً على الأرض يومين أفضل من الذي يمكث في الأرض يوماً، ومن يمكث أربعة أيام أفضل من الذي يمكث ثلاثة. وهكذا فكلما ما بقي فترة على الأرض بعد ولادته أفضل من غيره الذي يقوم في حينه. وأكثر من يعرف هذه المسألة سكان الصحراء وخاصة التوارق.

- (1) تفري: تشق، والرعر المكان الصلب أي الصعب اختراقه، والوعث ضده.
- (2) والصصاحص: جمع صصصح وصصصحان: المستوي من الأرض، تجوب: تقطع والرال: ولد النعام يقول: تشق بهم وعر الجبال، فكأنها حينئذ تجري في الرمال وكأنه يقول إن خيلهم قادرة على شق الجبال الصعبة والرمال العاتية وشبهها بفراخ النعام في سرعة عدوها فشاعر الصحراء يلتقط كلماته من الطبيعة المحيطة به.
- (3) مساعر للحروب جمع مسعر: الموقد كأنه الحرب توقد.
- (4) ثاروا: نهضوا، ندبتهم: استنجدتهم مثل الضرغام، وعذابها ومحالها بدل اشتغال من الأسود، والمحال: الكيد والمكر والخديعة والجدال والقدرة والقوة والشدة.
- (5) السدف: الظلمة، والدياجي جمع دجية الظلمة، دليلاً على الشجاعة والإقدام، والنصال الترامي بالنبال وغيرها من أدوات الحرب في تلك الفترة.
- (6) لا ينثون: لا ينصرفون حتى ينيخوا ركابهم بحلال العدو، والحلال جمع حلة الحي.
- (7) جاسوا: وطأوا بشدة وذكاء.
- (8) شنوا عليهم الغارة: صبّوها عليهم من كل وجه، وشعراء منفرة أي بمعنى قوية.

- ترَكُوا دِيَارَ كُنَانَةٍ مَنهُوجَةً  
وَحُمَاتِهِمْ وَكَمَاتِهِمْ غَادَرْتَهُمْ  
عَاثَتْ بِهِمْ غَلْبُ الضُّبَاعِ وَجُرَّتْ  
ظَلَّتْ تَهَادِي الْخَامِعَاتُ لُحُومَهُمْ  
مَا نَحْتُ عَنْ ثَأْرِي أُمِيمَةً فِي الْعِدِ  
فَسَلِي كُنَانَةَ هَلْ ثَارَتْ بِفِتْنَتِي  
أَمْ هَلْ أَبَحْتُ حِمَاهُمْ يَوْمَ الْوَعَى  
يَوْمًا تَصَبَّبُ بِالْعَبِيرِ دِمَاؤُهُمْ  
ظَلَّتْ تَصَبَّبُ مِنْ نَجِيعِ سِرَاتِهِمْ  
كَمْ مِنْ كَمِيٍّ قَدْ تَرَكْتَ مَجْدَلًا  
لِفِرَارِهَا عَنْ آلِهَا فِي آلِهَا (1)  
جَزَرَ السَّبَاعِ جَلَالَهَا وَضَعَالَهَا (2)  
أَشْلَاهُمْ لَوَجَارِهَا وَجَالِهَا (3)  
تَمْشِي جَعَارِبَهَا إِلَى خَزَعَالِهَا (4)  
حَتَّى شَفِيتُ النَّفْسَ مِنْ بَلْبَالِهَا (5)  
يَوْمَ الْوَعَى مِنْهَا بِخَيْرِ رَجَالِهَا  
وَعَرَكْتَهُمْ عَرَكَ الرِّحَا بِشَفَالِهَا (6)  
سِيلَانُ زَقٍ قُطِّعَتْ بِحَبَالِهَا (7)  
غَيْطَانُ دُورٍ مِنْ جِمَى أَقْبَالِهَا (8)  
بِخِلَالِ عَرَصَتِهَا وَبَيْنِ تَلَالِهَا (9)

- (1) منهوجة: أي موطأة بالأقدام لفرارها أي كنانة عن الها عن املها في إلها في سراها.  
(2) وتركت حماتهم وكماتهم جزر السباع جلالها أي كبارها وضئالها: صغارها.  
(3) عاثت: تعيث أكثر من الفساد والأشلاء، الأعضاء: جمع شلو، والوجار: سرب الضبيع؛ والجال: جبال وهي الضباع. وكأنه يقول تركت قبيلته أشلاء أعدائها تنهشها سراب الضباع في الصحراء.  
(4) تهادى: تهادى، والخامعات: الضباع، والخزعال: بالفتح الضبع.  
(5) يقول ما نامت له عين حتى أخذ بثأره وشفى غليل صدره من أعدائه، والبلبال: البرحاء والهم في الصدر.  
(6) وعركتهم: طحتهم، والرحا: الطاحونة، والثقال ما يفرش لها والبا بمعنى مع وهو يصور لنا صورة أعدائه فاستمد من الأدوات التي تستعمل يومياً صورته البلاغية ليقرب لنا الصورة أكثر.  
(7) العبير: أخلاط من الطين أو الزعفران، والزق: بالكسر القرية. وهنا ينقل إلينا ما كان عليه أعداؤهم من هزيمة حتى إن دماءهم تسيل بقوة وكأنها قُوب مملوءة بالماء وقطعت حبالتها فاندفع منها الماء بغزارة وهو تشبيه بليغ مع رصانة في الكلمات.  
(8) النجيع: الدم، والسرارة: السادة جمع سري، والغيطان: جمع غائط وهو المستوي من الأرض، والأقيال جمع قيل الملك أو الملك دون الأعظم.  
(9) الكمي: الشجاع، المسلح بالسلاح ومجدلاً: صريعاً، والتلال: جمع تل وهو المكان المرتفع.



- وخريدة حسناء بيضاً غادة<sup>(1)</sup>  
تبكي وتندب بغلها وحميمها<sup>(2)</sup>  
وقديمة سلب الجلال جمالها<sup>(3)</sup>  
تبكي وتسال عن أجيها وابنها<sup>(4)</sup>  
تدنوا إلي وتشتكي فيغمها<sup>(5)</sup>  
وكريمة تأبى السؤال لفضلها<sup>(6)</sup>  
ويصونها عند السؤال حياؤها<sup>(7)</sup>  
وحبوتها فضلاً بفاخير تالدي<sup>(8)</sup>  
ثم انثنيث وما احتملت مذمة<sup>(9)</sup>  
وأنا الذي شهدت كنانة بأسه<sup>(10)</sup>  
كقي وفكي صارمان كلاهما<sup>(11)</sup>  
موتوا بغيطكم كنانة إنني<sup>(12)</sup>  
فليبكين مع البواكي حاسراً<sup>(13)</sup>  
أو ينفسن كنيسة ونسائها<sup>(14)</sup>  
لم يغن عن فتیانهم في حربهم<sup>(15)</sup>  
وليزعن عن القريض فلم ينل<sup>(16)</sup>
- أبرزتها من خدرها وجمالها<sup>(17)</sup>  
وتنوح معولة على أشبالها<sup>(18)</sup>  
غادرتها تحنو على أطفالها<sup>(19)</sup>  
حداً وتسال عن سلاله خالها<sup>(20)</sup>  
رفدي قبيل تمامها لسؤالها<sup>(21)</sup>  
ومصائبها تشكو إلي بحالها<sup>(22)</sup>  
فمنحتها كرم كرائم مالها<sup>(23)</sup>  
وتثرت دخر حقائب لعيالها<sup>(24)</sup>  
وشفيت صادي غلتي بعلالها<sup>(25)</sup>  
وأنا المعدل لغيظها وتكالها<sup>(26)</sup>  
أعدته لجلادها وجدالها<sup>(27)</sup>  
أنا ذاكم مردي العدا بنبالها<sup>(28)</sup>  
بكأوهن ويجلسن بخلالها<sup>(29)</sup>  
إذ لم ينفسن من عظيم وبالها<sup>(30)</sup>  
شيء ولا فتياتهم ببالها<sup>(31)</sup>  
يفريضة إلا سماجة قالها<sup>(32)</sup>

\* \* \*

- (1) يقول: ورب خريدة حسناء سبيتها وأخرجتها من خدرها وجمالها.  
(2) تبكي وتنوح على بعلها وقيمها أي قريبها، معولة: رافعة صوتها بالعويل والنواح، والأشبال: بمعنى أولادها.  
(3) القديمة: المرأة المسنة والتي خلع عليها الزمن الجمال والحسن الذي كانت عليه في صباها، غادرها بمعنى تركتها تحنو وتعطف على عيالها.  
(4) حداً: أي شفقة وتسال عن أبناء خالها. والحدباء ما يحمل عليه الجثمان.  
(5) ترنو إلي وتشتكي حالها فيعمها عطائي قبل أن تكمل سؤالها.  
(6) حبوتها بمعنى أعطيتها والتلذذ التالف التاريخ، التلذذ المنتهي منذ زمن بعيد.  
(7) أنثيت انصرفت، والغلة العطش، والعلال جمع علل وهو الشرب بعد النهل.  
(8) مردي العدا مهلكها والتبال الهلاك.

## وقال أيضاً:

### من بحر البسيط

مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن

مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن

يَا هَاجِياً هَازِياً بِالْكَذِبِ مُفْتَحِراً  
ورونقُ الشعرِ كَذِبُ الْقَوْلِ يَسْلُبُهُ  
والفخرُ بِالْكَذِبِ لَا يُجْدِي وَظَلْمُهُ  
أَتَعْبَتِ نَفْسُكَ لَا تَنْطِقْ بِهَا كَذِبٌ  
يَهْجُو الْكَذُوبُ وَلَا تَبْدِي مَقَالَتُهُ  
رَكِبْتَ غَرِيماً إِلَى الْعَوْرَاءِ غَيْرِكَ إِذْ  
الْكَذِبُ دَاجٍ وَتَوَرَّ الْحَقُّ قَدْ ظَهَرَ (1)  
وَالصَّرْفُ أَحْسَنُ مَا فَاهَتْ بِهِ الشُّعْرَا (2)  
مَنْ تَحْتَهَا صُبْحَ الْحَقِّ قَدْ ظَهَرَ (3)  
يَهْجُو الْكَذُوبَ وَيَمْخُو الْحَقُّ مَا سَطَرَ (4)  
إِلَّا الَّذِي مِنْ خِصَالِ الْمَجْدِ قَدْ سُتِرَا (5)  
عَيَّرَتْ مِنْ فَرٍّ مِنْهُ الْعَارُ وَاسْتَقَرَّا (6)

(1) الهاجي المهاجي، والهازي من الهذيان وهو يكثر من الكلام بدون أفعال. فكثير الكلام يقول الحكماء لا يشكل خطورة أما الذي يشتغل في صمت فهو الذي يحسب له ألف حساب. وعندنا مثل في ليبيا على من يتكلم بدون فائدة فيقولون: «كثير نباح الكلب على روحه» (نفسه)، والداج المظلم.

(2) الرونق الحسن ويقصد بذلك أن الكذب يسلب جمال الشعر وحسنه. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في شاعر الإسلام زهير بن أبي سلمى: «إنه أشعر الناس لأنه لا يمدح أحد إلا بما فيه».

(3) لا يجدي ليس له أي فائدة لأن ما بني على باطل فهو باطل.

(4) بما كذب أي بما هو كذب فكذب خبر لمبتدأ محذوف.

(5) يبين هنا أن هجاء الشاعر الذي عرف بقول الكذب لاقية لكلامه لأنه لا يصدق الناس. ويشير هنا إلى قول أبي تمام:

وَإِذَا أَرَادَ اللّٰهُ نَشْرَ فَضِيلَةٍ طَوَيْتَ أَتَاحَ لَهَا لِسَانَ حَسَوْدٍ

(6) ركب غريباً أي بلا سلاح والعرير بالفتح الحمار والعوراء لا تقال فهي تنم عن القبح، وشاعرنا رابع الشعراء الثلاثة الذين يحكي لنا أبو نصر المزرباني أن أحدهم شلشل والثاني سلسل والثالث قلقل، فالذي شلشل هو الأعشى إذ يقول: «فقد غدوت إلى الحانوت يتبعني شاد مثل شلول شلشل».

والثاني مسلم بن الوليد إذ يقول: «سلت وشلت ثم تسل سليلها: فأتى سليل سليلها مسلولاً».

إِخْسَاءً فَقُولُكَ لَا يُصْغَحُ لَهُ أَحَدٌ  
شَحَقًا لِقَوْمٍ جَرَى يَوْمًا لَشَاعِرِهِمْ  
يُسْدَى الْقَرِيضُ وَمَا يَجِدَى الْقَرِيضُ لِمَنْ  
تُهْدَى الْقَرِيضُ وَمَا تُهْدَى بِهِ حَسَنًا  
هَلَّا مَدَدْتَهُمْ بِجِحْفَلٍ لِحَبِيبٍ  
جَهَلْتَ قَوْمَكَ فَاسْتَسَمَنْتَ ذَوَارِمَ  
إِنْ كُنْتَ تَحْسِبُهُمْ خِيَلًا فَصِلْ بِهِمْ  
أَرْبَعٌ بِنَفْسِكَ لَا يَغْرُوكَ قَوْلُهُمْ  
مَا أَنْتَ أَوْلُ مَغْرُورٍ بِكَذِبِهِمْ  
دُعُوا بَنِي نَاصِرٍ لِنَصْرِهِمْ فَأَتُوا  
دَعَا الْحَرْبِ وَحِينَ الْحَرْبُ بَالٌ جِمَا  
عَدُّوا الْفِرَارَ فَخَارًا وَالنُّجَا هَرَبًا  
لَوْ كَانَ يُنْجِي الْفَرَارُ مِنْ قَضَا لَغَدَا  
أَوْ كَانَ يُنْجِي الْفَرَارُ هَارِبًا لَنَجَا

فَالنَّاسُ أَجْمَعُ عَنَّا اسْتَحْسَنُوا الْخَبْرَ<sup>(1)</sup>  
مَا لِلْقَوَانِينِ فِي سِيَقِ الْحَصَانِ جَرَى<sup>(2)</sup>  
جُنُودُهُ فِي الْبَرَى أَضْحُوا شَذْرًا مَذْرَا<sup>(3)</sup>  
إِذْ لَوْ رَأَيْتَ لِمَا تُهْدَى بِهِ نَفْرَا  
يُضْحَى بِهِ جُنْدُكَ الْمَغْلُوبُ مُنْتَصِرًا<sup>(4)</sup>  
خِلْتَ السَّرَابَ شَرَابًا وَالتَّوَى ثَمَرًا<sup>(5)</sup>  
إِلَى حِمَاةٍ تَجِدُهُمْ إِذَا حُمِرَا  
وَأَنْ تَقُلْ بَارِدٌ أَدْلُ يَدَيْكَ تَرَى<sup>(6)</sup>  
غَرُّوا بِهِ نَاصِرًا فَخَلْفُوهُ وَزَا<sup>(7)</sup>  
مُبَادِرِينَ وَعَنْهُمْ أَزْمَعُوا سَفْرَا  
رُهَا الدَّمَاءُ تَوَلَّوْا عَنْهُمْ زُمْرَا  
وَمَا الْفَرَارُ بِلَاقٍ عَنْهُمْ الْقَدَرَا  
مَنْ مَاتَ مِنْ عَطَشٍ مِنْهُمْ كَمَنْ صَدْرَا  
مَنْ فَرَّ عَنْ قَوْمِهِ مِنْهُمْ وَمَنْ نَفْرَا

= والثالث المتنبي إذ يقول:

فقلقلت بالهم الذي قلقل الحشَاء قلاقل عيسى طهن قلاقل  
(1) إخسأ: في الأصل زجر الكلب لا يصغي لا يستمع.  
(2) القوانين قبيلة من الحسانين. كانت لها صولات وجولات في ميادين الوغى.  
(3) البرى الأرض، وشذر مدر متفرقين في مختلف الاتجاهات.  
(4) الجحفل: الجيش الكثير العدد، والجلب كثير الأصوات.  
(5) استسمنت ذوارم مثل اعتقدت المتورم سمينا، والسراب ما يترأى في القيعان عند اشتداد الحر ويحسبه الظمآن ماء، والتوى عجم التمر.  
(6) وإن تقل مثل حساني، يضرب المثل لمن يستهون الصعب إذا لم يمارسه فيقال إن ظننته بارداً فاجعل يدك فيه.  
(7) ناصر، رجل استجده في إحدى معاركهم فأنجدهم، وحين حميت المعركة فروا عنه وبقي في ميدان القتال يقارع الأعداء وحده.

حُبُّ السَّلامَةِ قد يُرْنِي إلى عَطَب  
حُبُّ السَّلامَةِ لو يُنْجِي لكان نَجَا  
قد عَمَّقُوا حَقَرَهُمْ لِيَسْلَمُوا فَعَدُّوا  
وما نَجَوْا يومَ لَكَنْبِيبٍ إِذْ هَرَبُوا  
لَقَدْ تَرَكْنَاهُمْ صَرَعَى تَخَالَهُمْ  
فَتَلِكْ دُورُهُمْ بِالظُّلَمِ خَاوِيَةً  
كَمْ غَادَةٍ مِنْهُمْ تَشْوِي الْجَرَادَ لَدَى  
وَكَمْ قُوَّةٍ مِنْ ثَكْلَى وَأَرْمَلَةٍ  
غَذَاؤُهَا حُمُرُ الْغَابَاتِ تَحْنُذُهَا  
إِنَّا بَنِي الْحَاجِّ أَبْطَالُ ذُوو كَرَمٍ  
مَهْمَا تُسَالِمُكَ تَعْلُ النَّجْمُ مُبْتَهِجاً  
أَيَّانَ تُؤْمِئُكَ تَأْمَنُ غَيْرُنَا وَإِذَا  
مَنْ ذَا يُسَاوِي بَنَا أَعْدَاءُنَا كَرَمًا  
مَنْ ظَنُّ أَنَا سَوَاءُ جَاهِلًا فَلَقَدْ

وَالْعَازُ مَنْ كَانَ بِالْأَيَّامِ مَسْتَتِرَا  
مَنْ بِالْبَسِيقِي بِالْحَفِيرِ قَدْ حَضَرَا<sup>(1)</sup>  
كَالْكَبْشِ عَنْ حَتْفِهِ بِظُلْفِهِ حَفَرَا  
عَشِيَّةً وَالسَّمَاءَ أَرْسَلَتْ مَطَرَا<sup>(2)</sup>  
نَخْلًا تَرَاهُ بِمَجْرَى السَّيْلِ مَنْقَعَرَا<sup>(3)</sup>  
فَأَصْبَحُوا لَا تَرَى بِهَا لَهُمْ أَثَرَا<sup>(4)</sup>  
كُنْثَارَ تَسْرِي إِلَى أَوْكَارِهِ سَحَرَا<sup>(5)</sup>  
وَأَيْسَمٍ وَيَسَامَى عَالَةً فُقَرَا<sup>(6)</sup>  
جُوعاً وَفِي الْكَبْجِ تَسْتَسْقِي لَهَا الْمَطَرَا<sup>(7)</sup>  
تَحْنُ الْهُدَاةُ الْكُمَاةُ السَّادَةُ الْأُمَرَا  
وَإِنْ نَعَادِكَ يَوْمًا تُلْفَ مُنْخَدِرَا  
لَمْ تَجِدِ الْأَمْنَ مِثْلًا لَمْ تَزَلْ حَزِيرَا  
فَهَلْ تُسَاوِي بِخَيْلٍ شُبْقٍ بِقَرَا<sup>(8)</sup>  
سَاوَى بَنَخْلِ الْقَرَى الْيَتُّوعِ وَالْعَشْرَا<sup>(9)</sup>

(1) البسقي، بئر جرت به معركة بينهم وبين كنت وكان النصر حليف بني الحاج. وقد حفرت حول الحي خندقاً في ذلك اليوم حتى تحمي به مواطنيها ولكن دون جدوى. وحدث ما حدث.

(2) لكنبيب، مكان حدثت فيه موقعة بين كنت وخصمها.

(3) منقعرأ: ساقطاً منجداً.

(4) دليل على سحقهم بالكامل.

(5) كنثار: قبيلة من قبائل الفلان المنتشرة من موريتانيا إلى تشاد والتي يبلغ تعدادها حوالي 17 مليون نسمة وترجع أصولهم إلى جيش عقبة بن نافع الفهري.

(6) فوته: هي فوته جالون، وهي سلسلة من الجبال بمنطقة السنغال.

(7) تحنذها: تشويها، والكج: موضع بالسودان الغربي.

(8) الفراء: بكسر الفاء الحمار.

(9) هنا افتخار بالقبيلة، وجاء بمقارنات وقال: كيف يساوي الأسد بالذئب، فكأنه يقول شتان بين الثرى والثريّا.

وَمِنْ يُسَارِ بِنَا أَعْدَاءَنَا فَلَقَدْ  
فَسَلْ بِنَا وَبِهِمْ إِنْ كُنْتَ جَاهِلُنَا  
هُمْ يُعَادُونَ أَهْلَ الْحَقِّ عَنْ سَفِهِ  
وَنَحْنُ نَرْجُو لِلْعَاصِي وَنَهْجِرُهُ  
يَرْضَوْنَ جَهْلَ أَبِي جَهْلٍ وَنَخَوْتُهُ  
وَبَغْضَ آلِ النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى وَزُرُّوا  
وَبَغْضُ أَنْصَارِ خَيْرِ الْخَلْقِ شِمَثُهُمْ  
قَوْمٌ إِذَا اثْتَمِنُوا خَانُوا وَإِنْ حَكَمُوا  
أَوْ وَاْعَدُوا أَخْلَفُوا أَوْ حَدَّثُوا كَذَّبُوا  
مِثْلُ الْيَهُودِ بِقَتْلِ الْأَنْبِيَاءِ هَلَكُوا  
أَلَا فَلَا أُمَّةَ بِالذَّنْبِ قَدْ هَلَكْتَ  
ثُمُودٌ قَدْ هَلَكُوا عَنْ بَغْيٍ عَاقِرِهِمْ  
نُتِهَاهُمْ صَالِحٌ فَخَالَفُوهُ كَمَا  
وَقَوْمٌ لُوطٍ أَتَوْا مَا قَدْ أَتَوْا سَفَهًا  
وَيَقْطَعُونَ السَّبِيلَ أَيْتَمًا سَلَكُوا  
وَأَهْلُ مَدْيَنَ لِلْمَكْيَالِ قَدْ نَقَصُوا  
وَيَنْقُصُونَ عُھُودَ اللَّهِ قَاطِبَةً  
هَذَا وَفِيهِمْ رَجَالٌ مُؤْمِنُونَ كَمَا

سَاوَى بِأَسَدِ الثَّرَى الذَّنَابِ وَالنِّمِرِ<sup>(1)</sup>  
وَالْحَالُ أَصْدَقُ مَا اسْتَبَاتَهُ الْحَبْرُ  
وَنَحْنُ نَنْصُرُ مِنَ الْحَقِّ قَدْ نَصَرَا  
وَهُمْ يُجَلُّونَ مِنَ الْفَسِيقِ قَدْ جَهَرَا  
وَيُبَغِضُونَ عَلِيًّا مِنْ عِلَا مُضَرَّ  
مِنْ الْوَلِيدِ وَمِنْ يَزِيدَ مَنْ فَجَّرَا  
وَسَمِ النَّفَاقِ عَلَى أَخْلَاقِهِمْ ظَهَرَا  
جَارُوا وَإِنْ خَاصَمُوا أَلْفَيْهِمْ فُجِّرَا<sup>(2)</sup>  
وَمَنْ تَقَلَّدَ عَهْدًا مِنْهُمْ غَدَرَا<sup>(3)</sup>  
لَأَنَّهُمْ قَدْ رَضُوا بِزَلَّةِ الْكَبِيرِ<sup>(4)</sup>  
إِلَّا وَيَأْتُونَ مَا أَتَتْهُ مُشْتَهَرَا  
وَهُمْ عَنَّا وَعَنَّا وَكُلُّهُمْ عَقَرَا  
نَهَى ثُمُودَ وَكَانُوا مَعْشَرًا فُجِّرَا  
وَهُمْ يُسَاوُونَ ذَاتَ الْبَعْلِ وَالذَّكَرَا  
جَهْرًا وَيَأْتُونَ فِي نَادِيهِمْ نُكْرَا  
وَكُنْتَ قَدْ نَقَضُوا أَرْزَاقَ كُلِّ وَرَى  
وَيَنْقُصُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كُلَّ عُرَى  
فِي آلِ فِرْعَوْنَ مَنْ إِيْمَانُهُ سَتَرَا

(1) الشرى: موضع تكثر به الأسود.

(2) (3) (4) يقول شاعرنا إنهم مثل اليهود الذين ضربت عليهم الذلة والمسكنة بسبب قتلهم للأنبياء  
لأنهم قد رضوا بما فعل آبائهم من تلك الأفعال الخسيسة من غدر وخيانة. واليهود مجبرون  
على مثل هذه الأفعال الدنيئة.



## الفصل الثالث

### الصراعات القبلية شعراً





## الصراعات القبلية

### في الشحر

فرضت قساوة الصحراء على سكانها التكتل، والقبلية، والأحلاف، وهو طابعها العام والمميّز لها، فنجد كل قبيلة تتحالف مع الأخرى وتشارك معها في الماء والكلاء، وتنهض كل واحدة منهما لنجدة الأخرى، إذا ما تعرضت لخطر داهم. وعادة ما يكون النزاع بين أفراد القبائل على الماء، والكلاء، أو إذا تعرض أحد أفراد القبيلة لأي اعتداء من قبيلة أخرى، وقد تنشأ بينهم حروب تطول، أو تقصر، ولكن عادة ما تتدخل أطراف أخرى للإصلاح بينهم، وتبادل القبيلتان سِلاً من الشتائم، وتذكر كل قبيلة ما كانت عليه الأخرى من أعمال مشينة، لا تليق بمكانتها، وتصغرها في نظر القبائل الأخرى. والمعبّر عن آراء القبيلة هو مذيع الصحراء ورجل الإعلام الشاعر الصحراوي.

وهذا اللون الذي نقدمه يعكس صراعاً بين قبيلة كنتة وقبيلة كلنتصر. وكان هذا الصراع في أوائل القرن العشرين بحيث كان بعض من قبيلة كنتة يقطن تغارست والبعض الآخر على نهر النيجر، وجزء ثالث منها حول الآبار من الناحية الشمالية.

إن قبيلة كلنتصر موطنها بلدة قندام، التي تقع إلى الغرب من مدينة

تنبت وتبعد عنها بحوالى خمسين كيلومتراً وقد زرتها عام 1985 م.  
أسباب الصراع:

يُقال أن فتى من قبيلة كنتة، سافر إلى قندام، فصادف الفتى الكنتي رعاة من كلنتصر، وطلب منهم شاة ليأكلها، فرفضوا طلبه وحاول أخذها بالقوة، فما كان من الرعاة إلا أن أوسعوه ضرباً، وعندما سمع أهل قبيلة كنتة الخبر، عدوا ذلك إهانةً لهم، فما كان منهم إلا أن نهضوا لقتل الرعاة وأدركوهم على بئر يقال له (أنجبا) فقتلوا بعضهم وفر الآخرون، وعندما ناهت الأخبار إلى مسامع قبيلة كلنتصر وما تعرض له رعاتهم جمعوا أحلافهم من القبائل وتوجهوا صوب مضارب قبيلة كنتة، للانتقام، والتقى الجمعان في موضع يدعى (تغاوغوين) ودارت معركة حامية الوطيس، كان النصر فيها حليف قبيلة كلنتصر، وقتل في هذه المعركة أميركنتة وقائد جيشها، وغنم كلنتصر غنائم كثيرة، إلا أن نار الهزيمة ازدادت اشتعالاً في قلب قبيلة كنتة فبينما كانت قبيلة كلنتصر راجعة بعد المعركة لحقت بهم قبيلة كنتة في بلدة (أنبكسا) وتجددت الحرب بينهما فانتصرت قبيلة كلنتصر للمرة الثانية على كنتة.

وكانت تغذي هذه الحرب النعرات والعصبية القبلية، والمنتصر في هذه الحروب مهزوم، فبدلاً من أن يوجهوا أسلحتهم إلى صدر المستعمر أخذوا يوجهونها إلى بعضهم البعض، وبدلاً من أن يتغنوا بأمجادهم التليدة الزاهرة أخذوا يتقاتلون متعللين بأتفه الأسباب. فهذا أحمد البكاي بن محمد بن الشيخ سيدي المختار الكنتي والمتوفى عام 1865م بمدينة (ساردين) ينظم قصيدة طويلة يهجو فيها كلنتصر نوردها كنموذج من نماذج الهجاء الذي كان منتشرأ في جنوب الصحراء فيقول:

## من بحر البسيط:

مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن

مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن

جالوت والتزموا الأحراث والبقر  
في الحرب والضرب لا تبقي لكم أثراً  
على أذالم ولم نذكر لكم خبراً  
لغير من يبتغي لنا به الخوراً<sup>(1)</sup>  
ولم تُبالِ بمن جفا ومن هجرا  
تدّى ومن برّ في الأقوال أو فجرا  
وغرّكم تركنا إياكم غرّاً<sup>(2)</sup>  
على العزيز الكريم الخالق الصوّراً  
وحربنا دونه تمالت الكبرا  
عشرين منكم كراماً عندكم غرّاً<sup>(3)</sup>  
عمت نوائره الأهلينا والنظرا  
ولم تميّلوا فتطفؤا الشرّ والشررا  
قتلاً ذريعاً يذيق الظالم الصبراً<sup>(4)</sup>  
داراً فداراً فمرعى ناعماً يضرا  
سوق النعام يساقى السهل والوعراً  
نفي الضراغم من أوجارها...  
وبيس بنك عراتاً ججوعاً فقراً<sup>(5)</sup>

كفوا عن الحرب لستم أهلها أبني  
إنّا رجال بني الكنتي صولثنا  
نضدّ عنكم إذا تؤذوا ونترّككم  
ونستلين لكم واللين شيمثنا  
ونأنف السب سبكم وذمكم  
ومن أقام على صداقة ومن اع  
حتى إذا ماز شحم بين أضلعكم  
قاتلثونا بلا لجرم مكابرة  
وبعد قتلكم لمنع قاتلنا  
كفى من الهون أن تبوا بصاحبنا  
فلم تقيموا حدود الله في حديث  
ولم تليثوا بقول كان أو عمل  
لما أبيثم وجدتم غب قتلكم  
دُناكم من دياركم نتبعها  
نُسوقكم بأعاليها وأسفلها  
نطارد الجمع والفريد منفرأ  
حتّى بلغنا بكم تنبكت أرضكم

(1) الخور: الضعف.

(2) مار: تحرك، وهو كناية عن التجبر.

(3) قوله تبوا بصاحبنا المعروف باء فلان بدم فلان قُتل به الغر الأشراف.

(4) نعت الصبر بعصارة شجر مر، وقيل «الصبر مفتاح الفرج».

(5) بيس بنك: دشرة إلى الشرق من تنبكت، شهدت منازعات بين قبيلة كلنتصر وكننة.

وطبلكنك وبنتكذل بلدته  
وساحل البحر لم نترك بساحته  
وجزئتم عامي فرش معاقلكم  
لما استقرت بفرشكم مجالسكم  
إذا بخيل عليها الأسد غاشية  
ترخي أعنتها للموت خائضة  
أطفال صدق تربت من أكابرها  
توارثته من الأجداد ليس لها  
ولا جبان ولا نذل ولا بخيل  
فبددت كلغزاف وشيعته  
ولا يكتاون ومن والأهم نهبت  
من جانب الحوض منازلها كرم  
جاءت تدافع بالأيدي بنادق في  
على جياد مهنات مسومة  
فلم يقم لوجهها ووجهتها  
فبعد يومين أو ثلاثة رجعت  
وخلفتكم رعاة لا غناء لكم  
وجاءت الخيل نحو الشرق تركلها  
تحذو بجيش به الأبطال نائحة

أمست خلاء فلم نبق بها أثرا<sup>(1)</sup>  
من الثعابين لا سمعاً ولا بصراً  
ورأس ماء كمر لشفر والنقرا<sup>(2)</sup>  
وخلثم بطئنا في جنبنا خذرا  
من جانب الغرب لن تبقي ولن تذرا<sup>(3)</sup>  
بحر المنية لا تخشى بها ضررا<sup>(4)</sup>  
في المجد لا ترتضي لمجدها غيرا<sup>(5)</sup>  
جد هزيل ولا من يتبع البقرا<sup>(6)</sup>  
ينحط عن فتى العلياء منكسرا  
وضيروا شذراً بأرضهم مذرا  
أموالهم زمر أكرم بها زمرا  
يوم الرخا وعن الأقران لم تحترا  
أجوافها من صنيع الزوم وما نصرنا  
مثل الخذاريف ترمي الفارس الخطرا  
من نجل جالوت إلا جاء منتشرا  
والبسثكم وراها الشمس والقمر  
سوى رعاية ما استطار وانتشرا  
بني الوجوه حسان الهيئة الأمرا  
نوح الشكالي تباري الشادي الضجرا<sup>(7)</sup>

- (1) طبلكنك وبنتكذل: قرية صغيرة إلى الشرق من تنبكت، جرت فيها معارك بين كلنتصر وكنته.  
(2) فرش: جبل بين تنبكت وقندام مررت به. أما رأس الماء فهو مكان شمال بلدة قندام.  
(3) (4) يحذر أعداءه ويفتخر في آن واحد من أن فرسانهم كالأسود على جيادهم العربية الأصيلة  
تقدم عليكم من ناحية الغرب تفني أولكم وآخركم.  
(5) يذكر الشاعر أعداءه على أنهم تربوا على الصدق والإباء ولا يرضوا بالظلم وإن طال الزمن.  
(6) هذا البيت أراد به الشاعر تصغير خصمه.  
(7) الشادي: المغني.

فبددتكم كفعل الأولين ولم  
فقتلت بخيامكم صدوركم  
وصيـرتكم بها هلكى كأنكم  
وحملت بـعدُ بالطبول أبعرة  
لما تولت وما استقصى أخو كرم  
قفوتموهم بأضعافٍ مضاعفة  
من بعدما اقتسموا منكم غنائمهم  
إذا بكم تلقطون كل منخزل  
فتقتلوه وقد ريعت أوائلكم  
فأنحاز آخره وارثاً أوله  
فلم تفيثوا إلى صدرٍ ولا ذنب  
غارات حقٍ من الرحمن ليس لها  
فقتلت منكم سبعون مع مائة  
وتابعتم رجالنا تطاردكم  
حتى جلوكم وقبل غير واحدة  
عن العذارى وأموالٍ منعمة  
هذا وأنتم كمثـل الشاة تتبع ما  
.....نعجل بقتلكم  
هل تستوي ألفٌ غير في مزابلها  
أم هل يُوازى بعبد السوء في ملاء  
فداء ديتـه ترئـو على مائة  
لولا القصاص الذي في الثور جاء كما

تـلـو على غير من من جمعكم حشرا  
والمال أبقت لمن... ظفرا  
أعجازُ نخلٍ أثيلِ النبت منقـعرا  
ثلاثةً وأبت أن تنيف الشعرا  
والحرُّ لا يعلق الأدران والغمرا  
وقد تقلل من مجموعهم كثيرا  
وأيقنوا أنكم لم تقتنوا أثرا  
عن السوادِ ضعيف القلب مُنتـسرا  
وجيشنا صدره قد حلّى الخـمرا  
فانفلَّ عسكركم بالذل مُختـمرا  
كأنكم ترفضون خلفكم بعرا  
إلا اللجاء وأنتم للجا حـفرا  
بغير من بالبراري ساقطاً نثرا  
رجال صدي يوم الوغى ضـبرا  
جلوكم عنكم بقهر من قهرا  
تطمو بكثرتها الأحجار والشجرا  
من السباع تولّى هارباً خـدرا  
إذ لستم كلكم أكفاء من عُـدرا<sup>(1)</sup>  
مع ضيغم صيئة استنار وانتشرا<sup>(2)</sup>  
مُهدب عن ضـدور الناس قد صدرا  
وذاكم يعد في استقائه عشرا  
قلنا ابعثوا عشرة فدى لمن ثعرا

(1)

(2) الصيت بالكسر: الشهرة والذكر الحسن.

وقد قضى الله في الأمور ما قدرا  
لو كان في عزه وملكه عمرا  
قفوا لإبليس من بربه كَفَرَا  
شرع العزيز فما أبقي لها وضرا<sup>(1)</sup>  
ونحن أخرى بأن نباي وأن نثرا<sup>(2)</sup>  
رياح ظلمكم فأثرت أثرا  
والقائد أنكر في الأجلاف مستترا<sup>(3)</sup>  
من قومكم قطعة تشفى بها الوحرا  
أو شيعها نكصت عدو الظليم ورا<sup>(4)</sup>  
طعم المخيض فشدت نحوه الأزرا  
له به شبع يقضي به الوطرا  
إذ أنتم ضعفاً في جليلة الأمرا  
إذ يكذبون عليكم بيئكم حُضرا<sup>(5)</sup>  
نبينا حاش من به النبي نُصرا  
أعداءكم خفية والحق قد ظهر<sup>(6)</sup>

فقال منها لكم للحمق قائلكم  
والله لا نفتدي بعيننا بشراً  
فاستكبرت قومكم عن حق مالكمكم  
ونحن نخوتنا قد رضّ قسوتها  
دليل ذلك تعافينا وجرأتكم  
قطعت السبل بعد القتل وانتشرت  
ففرقت فرقة منكم أراجسها  
بإثر خمس وعشر قومنا نهبت  
فبعد خمسة أيام تطالبها  
تذكرت بعدما قلت مآكلها  
كفعل ذئب الغضا لم يترك بلداً  
فلم نبال ولم نعبأ بجيشكم  
قد غرركم تنكر يكف وشيعتكم  
أنكم أنتم الذين قد نصروا  
وأضحكت قومكم فيكم برايشكم

(1) الوضر: الوسخ.

(2) يباي نفخر، ونتر: نطلب الوكر.

(3) أنكن: اسم تارقي، وهو بطل من أبطال وقائد من قواد قبيلة كلنتصر قارع الفرنسيين في كثير من المواقع وألحق بهم هزائم نكراء شهد له بها الأعداء قبل الأصدقاء إلا أن ידי الاستعمار طويلة فقتل بخيانة بعض من أبناء جلدته المتعاونين مع المستعمر. والأجلاف جمع جلف وهو غليظ القلب.

(4) شيعها: قربها، ونكصت: رجعت وتقهقرت.

(5) تنكريكف: قبيلة من قبائل توارق عرب الصحراء الكبرى. من أبناء أولاد ألد، وقبائل التوارق ينقسمون بداخلهم إلى عدة أفخاذ من بينهم فخذ ألد، وهم أبناء عمومة توارق مدينة غات بليبيا.

(6) البرايش: مجموعة قبائل ائتلافها سياسي تضم أكثر من عشرين فخذاً من بينها فخذ أولاد =

حتى جعلتكم كُيُودُكُمْ وجدُكُمْ  
فمن أراد لها الدمار دُمُّره  
سلطتم بذُنُوبنا وغفلتنا  
فلن نفارقكم حتى تلين لنا  
حتى تَفُوا وتدوا من البرابش من  
قتلُهم أربعين من كماتهم  
لأننا وهم كمثل جارحة  
ثم الصلاة على المختار من مضر  
وآله ثم صحب تابغوه على

فينا كُنانة لا جحداً ولا نُكراً  
رب السموات تدميراً كما سطرنا  
على حمانا كلاباً تأكل العذرا  
منكم رقاب تحاكي الصخر والحجرا  
صيرُتم دُمُهم بظلمكم هَدَرا  
ونحن أجدَر من يُطالب الوترا  
متى اشتكى بعضها فبعضها نفرا  
.....<sup>(1)</sup>  
حي فما عدموا الأعوان والنُصرا

\* \* \*

= سليمان والعلانة وأولاد ناصر والرحامنة. وهذه الأفخاذ لها امتدادات في ليبيا. ويختص فخذ أولاد سليمان في البرابش بالزعامة والعلم، وكانت ولا تزال لقبيلة البرابش المكانة المرموقة في جنوب الصحراء ولا يمكن لأي امبراطورية أن تقوم لها قائمة ما لم تكسب ودَّ البرابش. وقد ساندت قبيلة البرابش الملك سني علي امبراطورية سنغاي والتي تمتد من موريتانيا إلى نيجيريا في حروبه ضد المتمردين وفي فتوحاته للقبائل الوثنية. وسني علي يرجع أصله من أسرة ليبية نزحت من طرابلس الغرب وهي أسرة ضياء ونشرت الإسلام في تلك البقاع وأعجب أهالي البلاد بمكانة وأخلاق هذه الأسرة ونصبوا أحد أبنائها حاكماً عليهم، هو سني علي، وسني بمعنى حامي السنة.

(1) غير مقروءة في المخطوط

وقال أيضاً، يجيب أحمد سالم بن السالك اللمتوني قصيدته التي يقول فيها:

أرقت لبرق العارض المتهلل عيناك فاتهمتا بدمع مسبل  
بهذه القصيدة.

### بحر الكامل

متفاعلن متفاعلن متفاعلن

متفاعلن متفاعلن متفاعلن

وسنان من طول السرى في الهوجل <sup>(1)</sup>	طرقت نفيسة والدجى لم ينجل
فأرقت لا للعارض المتهلل <sup>(2)</sup>	باتت يمثلها لعيني طيفها
قُرشيةً ومن الطراز الأول <sup>(3)</sup>	غيداء كُنْتاويةً أمويةً
عجماء لم تنبل ولم تتنبّل <sup>(4)</sup>	لا من يعيش ولا دولحاجية
فأب إلى عدنان غير مُخْبل	لكن من الكنتي ينميها أب
بالقرب كانت أم بأرض الموصل <sup>(5)</sup>	ذم على من يبتغيه وصالها
لكن لعزة وصلها لم توصل	فخر الفتى في وصلها لو ناله

(1) الدجى: جمع دجية الظلمة، والوسنان: النائم، والهوجل: المغارة البعيدة لا علم بها.

(2) الطيف: الخيال.

(3) الغيداء: المثنية لينا.

(4) يعيش: قبيلة من الحسانيين، ودولحاج: قبيلة أحمد سالم بن السالك، ولم تنبل: لم تكن نبيلة ولم تتنبّل: لم تتكلف النبل والنبل النجابة.

(5) الموصل: مدينة بالعراق.



## الفصل الرابع

### شجر الرثاء



## الروثاء

الصحراء دائماً يتفاعل بأحاسيسه ومشاعره مع الواقع المحيط به. فالروثاء لون من ألوان الشعر، عبّر به الشعراء عن عواطفهم، فشاعر الصحراء مرهف الإحساس رغم أنه يعيش في بيئة بالغة القسوة.

وهذه القصيدة التي بين أيدينا للشاعر سيدي عالي التنبكتي، يرثي فيها صديقه يحيى الونكري الذي فارقه، وكأنه يقول بأن الموت سرق أغلى صديق، وهو يخاطب الحاضرين ويعظهم في نفس الوقت، بأن الدنيا دار فناء، والآخرة دار بقاء، وأن الذي يسير في الدنيا دون أن يلتفت للآخرة فإنه من الذين طمس الله على قلوبهم. ويرثي صديقه الونكري ويعتد شمائله، وعلمه، الذي نفع به العباد، ويخاطبه بعبارة صريحة بأن الأنام كلهم يشهدون لك بالتقوى والعلم. ومن شدة لوعته عليه يقول له: حُزْتُ الشهادة، ومن المَرَضِيّ عنهم لأن شيخهم التجاني راضٍ عنه. ومن هنا ندرك أن الشاعر والمَرِثِيّ من أصحاب الطريقة التجانية المنتشرة في السودان الغربي.

ويختم حديثه بالصلاة على رسول الله «صلعم».

فالفقيه، والمؤدب، والعالم، والمدرّس، يعتبر في السودان الغربي، وفي غيره من المواقع مركز إشعاع علمي، يبذل بعلمه دياجير الجهل، الذي

ينعت بالظلام، وفي مدرسته المبنية بأعواد القصبه أو خيمة الشعر، أو تحت شجرة الطلح، المنتشرة في صحراء السودان الغربي أو في مسجده المبنى بالطين، يدرس اللغة العربية والقرآن الكريم والفقه. فعندما يُتَوَفَّى فقيهٌ يترك فراغاً واضحاً، حيث يعتبر موته خسارة لهم، وتتحرك مشاعر الشاعر لهذا الحدث ويُهرع أصدقاء العالم وتلاميذه يرثونه بقصائد تعبّر عما يخالجه من آلام وأحزان لفقدانهم علماً من أعلام المنطقة.

## نبذة عن حياة

### الشيخ محمد محمود الأرواني

عالم وأديب من علماء تنبكت، ولد عام 1911 م بمنطقة أزواد شمال تنبكت، وكان ذا شخصية وهّية. تربى تربيةً إسلاميةً ودرس على علماء عصره، وظهر نبوغه الفكري. ولي القضاء في تنبكت، وهو منصب رفيع لا يتولاه إلا من كان متمكناً من العلم، وحسن التدبير. زار مصر في عام 1954م وقابل فقيه العروبة وأفريقيا الرئيس جمال عبد الناصر، والعلامة محمد محمود الأرواني له عدة مؤلفات جلية في شتى فروع المعرفة.

تعرّض للسجن من قبل موديبوكيتا رئيس جمهورية مالي السابق، عام 1960 م وأطلق سراحه موسى تراوري بعد انقلابه العسكري، وولاه قضاء تنبكت، واستمر في هذا المنصب إلى أن تُوفّي عام 1973 م بمدينة تنبكت. تعرّفت على ابنه عادل الأرواني عام 1985 م عند زيارتي الأولى لمدينة تنبكت، وزرته في بيته، ونشأت بيننا صداقة، ولمست في هذا الشاب الجدية، والصرامة والعلم، والخلق، فهو أديب مفعّو من أدباء تنبكت بالرغم من حداثة سنه.

### من أشعار الأرواني:

وشاعرنا الأرواني يرثي بعض أخوانه، ويذكر الحاضرين بأن الموت سنّة

اللّه في خلقه كل إنسان لا بد أن يرتشف من ذلك الكأس، وهنا شبّه الموت بالكأس المملوء بالماء، ونحوه وكل واحد يرشف هذه الرشفة إن كان عبداً أو سيداً فكأنه يستمد كلمات هذا البيت من البيت الذي يقول:

الموت كأس كل الناس ذائقه      والقبر داء كل الناس ساكنه

ويظهر في هذه القصيدة القصيرة انتقاء الكلمات، وروعة في الأسلوب، والبلاغة في التصوير واستعارة، وكتابة فهي تنم على ضلوع صاحب القصيدة في اللغة العربية وبلاغتها، فهو تصوير بليغ.

وختم قصيدته بأن الموت لا مفر منه، فحتى سيد الكائنات محمد بن عبد الله انتقل إلى جوار ربه، وهو خير البرية، فالموت لا يفرق بين البشر. ولكن شاعرنا الأرواني لم يفلت من الكأس الذي رثا به بعض أخوانه. وما هي إلا فترة من الزمن حتى تجرّعها، وبموته فقدت منطقة غرب إفريقيا علماً من أعلامها، في العلم. وقد رثاه عدد من علماء غرب إفريقيا، نورد نموذجاً منها خشية الإطالة على القارئ. فهذا الفقيه الورع الزاهد الشيخ عيسى يرثي العلامة محمد محمود الأرواني بقصيدة تحتوي على خمسة عشر بيتاً يصوّر فيها الشاعر أن الدائم هو وجه الله تعالى أما البشر فإلى زوال طال الأمد أم قصر. ويبين شاعرنا أنّ فقد العالم من الصعب تعويضه، وضرب مثلاً بالعلامة صاحبنا الذي قال عنه أنه لم يترك من يوازيه في العلم، وعرفه بالحبر الراسخ قدّمه في العلم وهو الذي يحلّ مشاكل المنطقة من فتاوى وغيرها.

وهذا نموذج من قصيدة للشاعر محمد بن محمد بن إبراهيم، يرثي فيها شيخه حما النحوي.

وفيها يذكر شمائل شيخه، من علم، وأدب، وعدل، وبشاشة الوجه، وحسن المعاملة ويطلب من الله أن يسكنه فسيح جناته، بما أسداه للعلم وأهله من خدماتٍ جليّة يذكرها الذاكرون من بعده.

وصدق رسول الله «صلعم» حين قال: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو ابن صالح يدعو له، أو علم يُنتفع به».

### من البحر الوافر:

مفاعلتن مفاعلتن فعولن

مفاعلتن مفاعلتن فعولن

بَكَتْ عَيْتِي بدمع من صديد	على متواضع وريع عفيف
يلاقني بالبشاشة من أتاه	وفعل ملاطف ندب شريف
وَيُقْبِلُ إن به ضئيف أَلَم	بخد ساطع حسن طريف
أرقت لحزن مهلكه بليل	بُعِيد الصبح في أسف كثيف
ولكن كيف يبقى بين خلق	قليل الخير مع دهر عنيف
أياً من قد قضى بالعدل فيه	أدِمَّ شُكْنَاهُ في ظل وريف
وَنَقَّ ثِيَابَهُ بِرَضِي وَعَفْوٍ	وَمَحَوِ الْوِزْرَ مع رُفِّي لطيف
وَنَوَّزَ قَبْرَهُ بِشِعَاعِ نَوْرِ	بدا من نور ذي الشرف المنيف

\*\*\*

قال محمد محمود بن الشيخ الأرواني في رثاء بعض أخوانه:

### البحر الكامل:

متفاعلن متفاعلن متفاعلن

متفاعلين متفاعلن متفاعلن

الْمَوْتُ حُكْمُ اللَّهِ فِي الْأَجْناسِ	لا بد للمخلوق من ذا الكأس
لَمْ يَنْجُ مِنْهُ وَالِدٌ لَا وَلَا	مولوده في الناس ليس بناس
وَأَحَقُّ بِالْمَرْءِ الْكَبِيرِ رَجوعه	عن حبه طيب البقا لليأس
فَمَالَنَا كَلًّا إِلَى ذوق الفنا	ورحيلنا كلاً إلى الأرماس
لَكِنْ فَقَدْ حَفِيدٌ شِخِي حَامِدٍ	أشجائه ضاقت بها أنفاسي

وجبال صبري ذكها أحزائه  
ولأجل أجر الصبر أضير داعياً  
لا تجزعوا أخواننا حاشاكم  
أحمد صبراً لفقد محمد  
وصلاة ربي والسلام على النبي  
إنني به متأله به آس  
أهلي لفضل الصبر صبر راس  
أنتم رؤوس الناس يوم الباس  
فمحمد قد مات خير الناس  
هو سيد الكونين في الأجناس

\*\*\*

العالم العلامة محمد محمود الأرواني المالي الشيخ، كان قاضياً في  
تنبكت، توفي في سنة 1972م فرثاه الفقيه الورع الزاهد الشيخ عيسى  
بهذه القصيدة:

ببحر الوافر:

مفاعلتن مفاعلتن فعولن

مفاعلتن مفاعلتن فعولن

ألا إن الدوام من المَحال  
وكل فتى وإن طال الزمان  
ولكن فقد أهل العلم شيء  
وهذا الحبر لم يترك نظيراً  
وذاك محمد المحمود سعيماً  
فمن ذا للقضاء وللفتاوى  
له القَدَمُ المعلى في العلوم  
وهمته لهذا القطر كلاً  
فليس مُصيبة فقد لشيء  
ولكن المصيبة فقد شيخ  
ويا تَكْرُورُ صبراً قد دُهِمناً  
وليس يدوم إلا ذو الجلال  
سَيَقْلُ لا محالة للمال  
كبير عند ذي دين وبال  
فإننا راجعون لذي الكمال  
حباؤه الفوز فضلاً ذو النوال  
وحل المشكلات بأرض مالي  
سمى لا يُجَارَى في المَعَالِي  
يعين من اعتراه بكل حال  
من الدنيا ولو فوت اللئالي  
يفوت بفوته علم الحلال  
بدهية كأمثال الجبال

ويا أروانُ يا تنبُكْتُ صبراً  
حباؤه الله بالرضوان فضلاً  
بجاء شفيعنا المبعوثِ صلّى  
وال ثم أصحاب كرام  
فأجر الصبر أفضل في المحالِ  
وأسكّنه الجنان بلا نكالِ  
عليه إلهنا أمدّ الليالي  
وتابعهم بإحسان وتالِ

\* \* \*

## قصيدة الفقيه الشاعر سيدي عالي التنبكتي، يرثي يحيى الونكري: من البحر البسيط:

مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن

مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن

كلّاً وليس نعيمها لذي أملٍ  
ينفك ساكنها من كثرة الزلّ  
فجر العداة إذا بالخطب والجليل  
ني الكروب إلى أن غبت عن وهلي  
أقولُ سبحان ربي الحيّ في الأزلِ  
ووعده صادق من دوننا خلل  
إنا إلى الله راجعون بالسوجل  
لأه من ربنا تأتي على مهل  
فقد تغيب عنهم صاحب النحل  
خوف فيحيى عديم الند والمثل  
ولو رأوا جوده ولّوا من الخجل  
وأوحشت أرضنا في العلو والسفل  
وكل عين بكّت من سائر الملل  
جمر الشمائل أشتاتاً بلا حيل

ما الدار دار الدنا داراً لذي وجلٍ  
بل هي دارُ عناءٍ وابئلاءٍ ولا  
يُمسي الحبيب سروراً بالمحب وفي  
لما نَعُوا سيدي يحيى الشقيق دعت  
أصبحك يومئذ خلواً حليف أسي  
الله أكبر هذا وعدٌ خالقنا  
راجعك ربي إلهي ثم قلت إذا  
لعل رحمته تعفنا وكذا الصر  
فليتسب أدياء الفضل كيف رأوا  
وليفخر اليوم قنوم بالسخاء ولا  
لو عاش لم يطرق الأسماع ذكّهم  
أجل فقد مات هذا الونكري أسفاً  
فكل نفس لعلياه حكت وشكت  
ولا غرابة في هذا فلان له



صبرٌ جميلٌ تواضعٌ بلا دَغَلٍ<sup>(1)</sup>  
ولا تَخَفُ لائماً في ذاوه ولا تَسَلُ  
تَعْدِلُ فنانك في غياهب السُّبُلِ  
لما تأتي لكم عَثْبِي أَخا العُذَلِ  
لأن أعذاركم أولى من الجدلِ  
عليك إذ هم شُهُودُ اللَّهِ والرُّسُلِ  
مع السُّقام الذي قاسيت والعللِ  
كافٍ لكل مُريدٍ صادقٍ العملِ  
فَنَمُ فأنْت عروس نام في الحجلِ  
وَيُدْخِلُنْكُمْ الجنان ذا الظللِ  
لكنَّ غيرَكم قد غَاص في الوَحْلِ  
فصل الخصام له قدماً وذاك جلي  
مُذِيقُ فاروقنا عثمان ثم علي  
والتابعين منا وكل ولي

منها السخاء ومنها الحلم ثم تفي  
عدد صنوف المروءات بأجمعها  
يا لائماً في مَوالاة الحبيب فلا  
لو كنتَ تعلم ما يحويه من كَرَمٍ  
لكنَّ مِن لازمي قُبُولِ مَغْذِرَةٍ  
فادَّهَب فقد أثنت الأتام كلهم  
حُزَّتِ الشهادة ذات الجنب تشهد لي  
يكفيك مرضاة شيخنا التجاني وذا  
طُوبَى لكم حيث جاوزتم سَمِيئَكُمْ  
فَاللَّهِ يَغْفِرُ ذَنْبَكُمْ وَيَرْحَمُكُمْ  
يا آل ونكري هذا الرزء رزؤكم  
عزيتكم يا إمام القوم بأب ومن  
ثم الصلاة على محمد وعلى الصـ  
والآل والصحب والزوجات كلهم

\* \* \*

---

(1) الدغل: العيب في الشيء يفسده.

## من بحر البسيط:

يا لهف نفسي من هذا المصاب لقد  
يا للمدارس من يتم ومن وصب  
إن العلوم لتبكيكم بأكملها  
أصول مذهب مالك وعمدته  
يا للخليل ويا نص الرسالة قد  
وأصبح النحو والصرف اللذان هما  
يا لهف حضرنا ويا وظائفنا  
يا شمس فضل زماننا المنير ويا  
قد غبت عنا وليكن نور بهجتيكم  
قد غاب طاهرنا وغاب عارفنا  
ربيتنا بصغار العلم تُرشدنا  
تواضعا منك لا أمراً تُبَيِّنه  
بالله بالله ما علقت مثلكم  
وما شهدت بغير الحق في قسيمي  
عل الإله بفضل الله يجمعنا  
في جنة الخلد دار المؤمنين وفي  
صلى إله الورى ما قال قائلنا  
على النبي المصطفى وآله الكرام

خلت رزيتته في القلب والكبد  
وطالب العلم أضحى ظاهر النكد  
تفسير قرآنها بواضح السند  
فروع مذهبه كل هذا الصدد  
رزيتها فإيكيا من دونها أمد  
طوع الفقيد غزير الدمع والشهد  
من ذا لنا بالصصح والمدد  
بحر العلوم به من غير ما فند  
باق ومجدكم باق مدى الأبد  
وغاب من يفتدى بالمال والولد  
وحيث صونا كباراً كنت ذا أود  
مما احتوت عليه جيّد العهد  
من بيننا باقياً في القطر والبلد  
ولا على إذا ما قلت مُعْتَقدي  
تحت الظلال عرشه الرغد  
أقصى الجنان وعند رؤية الصمد  
إن المدينة تنبكت لفي كمد  
والناس ما بين ذي حزن وذي جلد

## الفصل الخامس التوسل والمديح



## شجر التوسل

التوسل إلى الله برسول الله (صلعم):

أضفى الإسلام على نفوس أبناء السودان الغربي، مبادئ الحب، والوئام، والتخلق بالخلق الحسن، وبعث في نفوسهم حب الرسول (صلى الله عليه وسلم) الذي بلغ دعوة ربه أحسن تبليغ، والذي مدحه الله عز وجل في كتابه العزيز «بسم الله الرحمن الرحيم وإنك لعلی خلق عظیم» صدق الله العظيم: وقوله «بسم الله الرحمن الرحيم وما آتاكم الرسول فخذوه» وقوله: «بسم الله الرحمن الرحيم وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» صدق الله العظيم. وغير ذلك من مواضع التكريم، لرسول البشرية سيدنا محمد بن عبد الله، الذي أخرج البشرية من الظلمات إلى النور، فأخذوا يمدحونه بقصائد يتوسلون به إلى الله تعالى، عندما تضيق بهم الحالة، وما أكثر ذلك خاصة عندما تبخل السماء عليهم بالمطر، فتجذب الأرض وتموت مواشيهم ويهلك حرثهم.

وقد استغل المستعمرون من أمريكيان وفرنسيين هذه الظروف القاسية التي يمر بها أبناء السودان الغربي من المجاعة والفاقة، فأحضروا لهم الحبوب المتعفنة التي كان مقرراً لها أن ترمى في البحر تحت اسم الإغاثة الإنسانية، كان ذلك عام 1974 م.

ولقد شاهدت عشرات من حركات التبشير تجوب منطقة جنوب

الصحراء تحت إسم الإغاثة الانسانية، وهي توزّع جرعات الموت. وعلى كل من يريد أن يحصل على هذه الكيلوجرامات أن يأتي إلى مركز توزيع الاغاثة، فكان سكان الصحراء يغدون إلى تلك المراكز قاطعين مسافات تزيد على الخمسين كيلومتراً بوسائل نقلهم البدائية.

وما يفعله المستعمر اليوم في أفريقيا فعله في الماضي مع أبناء أمة العرب، فقد استغل حالة الفاقة التي كانت تعانيها من جراء الحروب التي خاضتها ضده وقدّم لها اليد البيضاء، المطلية بالسواد، من إغاثة وما يعرف بالقرامات عندنا في ليبيا. غير أن الكثير من الأهالي، رغم تدهور أحوالهم الاقتصادية رفض أخذ هذه المعونة المشبوهة والتي هي بمثابة سموم. وهذا أحد أبناء ليبيا يعبر عن رفضه أخذها بقوله:

خمسة كيلو ها الشعير      بلاهم خير نبوهم عانه للمدير

وفي ظل هذه الظروف القاسية شرع شعراء الصحراء في نظم القصائد توسلاً إلى الله، الذي لا يمتّ على عباده، إذا أعطاهم، بأن يخرجهم من هذه الفاقة، ولم يتوسلوا إلى المستعمر الذي يحاول أن يوقعهم في حباله. وهذه القصيدة نموذج لهذا التوسل.

والشاعر محمد أحمد بن محمد بن الهادي بن محمد المبارك بن علي، شاعر تنبكتي لم تسعفنا المصادر والمراجع التي بين أيدينا في الحصول على ترجمة، له، غير أننا نستشف من شعره بعضاً من ملامح شخصيته، خصوصاً ما يتعلق منها بثقافته. فشعره دليل على تمكنه من ناصية القول، ومعرفته بأفانين الكلام، ثم إنه يدلنا على روح دينية مرتبطة بالرسول (صلعم) وهو في ذلك يعبر بها أيضاً في التوسل الشائع عند شعراء عصره، أضف إلى ذلك أن الإشارات التاريخية المرتبطة بالصحابة من أمثال العباس وحمزة تقدم برهاناً على ثقافة تاريخية توحى بتبحر في علم السيرة النبوية، كما أن حديثه عن الجفاف واستسقاؤه المطر دليل على معاشته

لهموم قومه، وهو أيضاً يرد كيد كل ظالم في نحره، فهو بذلك مناضل  
بقلمه وسيفه من أجل الحرية فيقول:

ولقهر كل خصومة في ظالم ولرد كل شماتة الأعداء  
وشاعرنا يترجم الواقع الذي عليه حال المنطقة في قصيدتين،  
الأولى مطلعها:

الله لي في شدتي ورخائي وشفاعة الحب النبي رجائي  
والثانية:

أشكو إليك ولا أشكو إلى الناس فقري وذلي وتقصيري وإفلاسي

ويقول محمد أحمد بن محمد بن الهادي بن محمد المبارك بن  
علي بن النجيب:

### من البحر الكامل:

متفاعلن متفاعلن متفاعلن:

متفاعلن متفاعلن متفاعلن

وشفاعةُ الحبِّ النبي رجائي  
وكفى وحسن الظن فيه ردائي  
ثم الصحابة كلهم شفعاي  
وحمايتي في الضر والسراء  
لشفيع خلقك سيد الشفعاء  
فَسِرْ فَأَدْرِكْ فَوْقَ كُلِّ سَمَاءٍ  
كَلَّا وَلَا مَلِيكَ مِنَ الْكِرْمَاءِ  
أَهْلُ الْعُلَا طَرَأَ بِكُلِّ سَمَاءٍ  
وَأَرَاهُ لِلْجَبُرُوتِ كُلِّ سَنَاءٍ  
مِنْ كُلِّ نَوْرٍ فِيهِ كُلُّ شَفَاءٍ  
لِلصَّبْحِ ضَوْءٌ مَا مِنْ الْأَضْوَاءِ  
تُهْدَى لِمَنْ هُوَ أَهْلُ كُلِّ سَنَاءٍ  
تُودِي الْإِلَهَ بِأَعْظَمِ الْأَسْمَاءِ  
نَهْجِ الْهَدَاةِ السَّادَةِ الْأُمَرَاءِ  
فَضَالِ يَا ذَا الْمَنَى وَالْأَعْطَاءِ  
يَا مُنْعِمِ يَا أَرْحَمَ الرَّحْمَاءِ  
أَنْتَ السَّمِيعُ لَنَا وَأَنْتَ الرَّائِي  
يَنْدَعُو بِكُلِّ سَمِيٍّ مِنَ الْأَسْمَاءِ  
مَتَوَسِّلًا يَدْعُو بِكُلِّ دَعَاءٍ  
أَرْجُو رِضَاكَ وَأَرْجُو مِنْكَ فِدَائِي

اللَّهُ لِي فِي شِدَّتِي وَرِخَائِي  
اللَّهُ حَسْبِي وَاعْتَصَمْتُ بِحَبْلِهِ  
وَالْمُرْسَلُونَ وَأَلْ كُلِّ عِدَّتِي  
يَا مَنْ إِلَيْهِ وَسِيلَتِي وَشَكَايَتِي  
وَوَسِيلَتِي الْعَظْمَى إِلَيْكَ مَحَبَّتِي  
نَالِ الْكَرَامَةِ وَالْعَلَا مِنْ رَبِّهِ  
مَا لَيْسَ أَدْرَكَهُ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ  
فَاسْتَبَشَرْتُ بِقُدُومِهِ فَرَحًا بِهِ  
نَاجَاهُ رَبُّ الْعَرْشِ فِي مَلَكُوتِهِ  
فَسَقَاهُ كَأْسًا لِلْهَدَايَةِ فَارْتَوَى  
أَمْضَى فَرِيضَتِهِ فَعَاذَ وَلَمْ يَلْخُ  
صَلَّى عَلَيْهِ اللَّهُ أَطِيبَ صَلَوةٍ  
وَعَلَى جَمِيعِ الْآلِ وَالْأَصْحَابِ مَا  
وَالْأُمَمَاتِ وَكُلِّ تَالٍ سَالِكِ  
يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ يَا ذَا الْجُودِ وَالْأُ  
يَا مُحْسِنًا عَمَّ الْوَرَى إِحْسَانُهُ  
أَنْتَ اللَّطِيفُ بَنَا وَأَنْتَ الْمُتَرَجِّى  
أَنْتَ الْمُجِيبُ لِكُلِّ دَاعٍ مُخْلِصُ  
أَنْتَ الْمُجِيبُ لِمَنْ دَعَا مُتَوَاضِعًا  
أَدْعُوكَ مِمْتَثِلًا لِأَمْرِكَ فَاسْتَجِبْ



يا رب بشر بالكرامة والرضا  
يا رب بالعباس عم المصطفى  
رب أشقنا غيثاً سريعاً طيباً  
سهلاً مريعاً نافعاً أم صيباً  
جوناً غزيراً بل خريفاً سيق لنا  
يروى البلاد مشارقاً ومغارباً  
يروى نبات الأرض بين هضابها  
تحيي به جرزاً بقاعاً بعدما  
ولتبتن به جميع الزرع في  
زوجاً فزوجاً من نبات طيب  
ترعى البهائم كل روض رائق  
فتظل طوراً تجتنيه وتارة  
فيذا ارتوت تلطت وبألت بعدما  
فتفيض أخلاف بكل تشخب  
سبباً يكون لطاعة لا فتنة  
سبباً يكون لتوبة أرجو بها  
سبباً يكون لدفع كل ضلالة  
ولقهر كل خصومة من ظالم  
أوذاك أم حوضاً نقياً أرتجي  
أعدته للصائمين نهارهم  
يرجون قرة أعين من ربهم

ويُنبل فضل شفاعة الشفعاء  
رب بحمزة سيد الشهداء  
من ديمة من رحمة هطلاء  
عذباً طهوراً فيه كل شفاء  
بالرفق أنت مقدر الأشياء  
بين الصباح وبين كل مساء  
يروى ذوات الدُّر والأبنساء  
فحطت وماتت أيما إحياء  
كل المنابت مُنشئ الأعضاء  
مثل الذُّبا والنخل والقثاء  
ذي بهجة وحديقة غناء  
تأوي إلى خُلج به من ماء  
اجتوت بما نالت من النعماء  
وتؤوب رائحة قبيل مساء  
تخشي عواقبها بكل ملاء  
محو الذُّنوب وجلب كل رخاء  
ولدفع كل مضرة وبلاء  
ولرد كل سَمائة الأعداء  
بكمال فضلك واسع الإعطاء  
وبليلهم يبكون كل بكاء  
وشفاعة من سيد الشفعاء



## وقال الشاعر محمد أحمد بن محمد بن الهادي بن النجيب:

### من البحر الوافر:

#### مفاعلتن مفاعلتن فعولن

#### مفاعلتن مفاعلتن فعولن

فَقْرِي وَذُلِّي وَتَقْصِيرِي وَإِفْلَاسِي  
فَأَنْتَ مَنْ لِحِرَاحِ الْمَلْتَجِيءِ آس<sup>(1)</sup>  
يَا مَنْ مَقَادِيرُهُ تَجْرِي بِقِسْطَاسٍ  
وَاجْعَلْ هُذَاكَ مُحِجَّتِي وَنَبْرَاسِي<sup>(2)</sup>  
وَاجْعَلْ بِذِكْرِكَ رَبِّي طِيبَ أَنْفَاسِي  
يَنْجِي مِنَ الْهَلَكِ وَالْبَأْسَاءِ وَالْبَاسِ<sup>(3)</sup>  
مَنْ مَوْجِبِ الْمَقْتِ وَالْبُلُوى وَالْإِبْلَاسِ<sup>(4)</sup>  
مَسْؤَمَاتٍ لِعَاثٍ قَلْبُهُ قَاسٍ<sup>(5)</sup>  
أَذَلَّ مِنْ رَمَتْ مِنْ مُسْتَهْلِكٍ خَاسٍ<sup>(6)</sup>  
بِهِ الْمَصَالِ عَلَى تَهْوِيسِ الْأَهْوَاسِ<sup>(7)</sup>  
يَا مَنْ عَنَائِيَّتِهِ حَرْزِي وَخُرَّاسِي  
عَلَى التَّكَالِيفِ يَا مَنْ لَيْسَ بِالنَّاسِي  
مَنْ سِرِّ لَطْفِكَ تَغْنِينِي عَنْ أَجْنَاسِي  
وَإِثْنِ عَلَى الرُّشْدِ وَالْإِيقَانِ أُسَاسِي

أَشْكُو إِلَيْكَ وَلَا أَشْكُو إِلَى النَّاسِ  
أَشْكُو إِلَيْكَ مَعَ التَّسْلِيمِ مَبْتَهَلًا  
فَالْطُّفُ بِنَا فِي مَجَارِي مَا تُقَدِّرُهُ  
وَلَا تَكْلُنَا إِلَى تَدْبِيرِ أَنْفُسِنَا  
وَاصْحَبْ بِلَطْفِكَ فِي الْحَالَاتِ يَا حَمْدِ  
وَتُخَذْ بِنَا لِلنَّجَاةِ مَسْلُكًا أَمَمًا  
أَشْيَخَ عَلَيْنَا دَلَاصَ عَصْمَةٍ وَنَجَا  
وَارِمِ الْعَدَا بِسَهَامِ الْبَطْشِ هَائِبَةٍ  
وَرُدَّ مِنْ رَأْفَتِنَا بِمَكْرِهِ وَبَغْيِ  
وَانْصِرْ وَظْفِرْ وَأَثَرْنَا وَكُنْ عَضْدًا  
وَلَا تَهِنَّا وَلَا تَشُمَّتْ بِنَا أَحَدًا  
وَمَنْ نَوَاصِي الْوَرَى مَكَّنْ يَدِي وَأَعِزْ  
وَسَخَّرِ الْكُونَ وَاصْخَبْنِي بِعَارِفَةٍ  
وَكُفِّ عَنَّا أَكْفَ الْمَاكِرِينَ بِنَا

(1) الآسي: الطيب.

(2) المحجة: الطريق، والنبراس: المصباح.

(3) أمما: قريباً.

(4) الدلاص: الدرع سواء كانت حديدية أم المصنوعة من الجلد، والإبلان: السكوت من خوف.

(5) عاث: ظلم قاس، من القساة.

(6) خاسي: طريد.

(7) العضد: الناصر والمصال القتال.

ما يرتاح من روحه مأسور إبلاس<sup>(1)</sup>  
 من صفو خالص ما أفرغت في الطاس  
 تسري دهباً إلى مفارق الراس  
 على يدي إلى جداول الناس  
 إحسانه لعوار المعترى كاس<sup>(2)</sup>  
 ثمهل على فرقة الضلال الأرجاس<sup>(3)</sup>  
 ليدينك المرتضى يا خير نفاس  
 وضابث بأظافير وأضراس<sup>(4)</sup>  
 اذ أصبحوا أثراً من بعد إيناس  
 يشدّ منهم عن المرمى أخو باس  
 بالنصر يا ناصراً سلطانه راس  
 يا مَنْ يُكَنِّ بلا حدٍ ومقياس  
 مُصاص قهر وصفو جذم إلياس  
 يشكو إليك ولا يشكو إلى الناس

واجعل براجم راحتي مقاليد  
 وشق قلبي وأملاً، مناسبة  
 واجعل غذائي أسراراً مقدّسة  
 واجعل عيون معين النفع جارية  
 وسخّر الكون واطوِ البون يا صمد  
 واكفّ الشؤر وهبيء الأمور ولا  
 وتخذهم أخذاً من عاجلت منتصراً  
 أغرّ بهم كل شائك بشوكته  
 حتّى يصيروا لدى أشكالهم عبراً  
 واجمعهم بحجارة الوبال فلا  
 يا ربنا واعفّ عنا يا عفوّ ومجد  
 ولا تُغيّر علينا نعمة سبغت  
 وصلّ أزكى صلاة بالسلام على  
 والآل والصّحب ما وافى أخو كرم

\*\*\*

(1) البراجم: مفاصل الأضباع، إذا قبضت كفك نشرت وارتفعت.

(2) البون: البعد، والعوار: العيب.

(3) الأرجاس: جمع، رجس.

(4) الشائك: ذو الشوكة.

## قصيدة للعالم والأديب الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي. وهي لون «جديد» من ألوان المدح لرسول الله (صلعم)

### نبذة عن حياته:

ولد العلامة محمد بن عبد الكريم المغيلي عام 790 م في مدينة تلمسان بمنطقة مغيلة. نشأ في مدينة تلمسان ذات التاريخ الحضاري في بيت عريق عرف بالحسب والنسب. وكان من المثقفين القلائل في بلده، تربى على يد أبي العباس الوعليسي، ودرّس القرآن الكريم وأمّهات الكتب على يد سيدي أحمد بن عيسى المغيلي التلمساني المعروف بالجلاب، كما درس العلم على آخرين وقد عُرف بنبوغه الفكري المفرط.

### رحلاته:

بعد تمكّنه من العلم اتجه صوب توات ومنها انتقل إلى مدينة أقدر حيث بني فيها مسجداً وأخذ يعلم العلم، ومن ثم غادرها إلى كانو ومنها إلى مدينة جاو عاصمة امبراطورية سنغاي حيث التقى بالحاج أسكيا محمد، وأجابه على مجموعة من الأسئلة قام بتحقيقها زبادية وحشويك يجيب فيها على أسئلة أسكيا الحاج محمد. وفي هذه الأثناء سمع بمقتل ابنه عبد الجبار من طرف اليهود فحزن لذلك أشد الحزن وأراد الرجوع إلى توات إلا أن نية أداء فريضة الحج كانت قد سبقت ذلك فذهب إلى الأراضي المقدسة وأدّى فريضة الحج.

### مناظراته:

حدثت له مناظرة مع الشيخ جلال الدين السيوطي حول قيمة دراسة علم المنطق وكيف أن السيوطي عنده تحقُّظ على هذا العلم فكتب له المغيلي قصيدة في هذا الخصوص نورد أبياتاً منها للتدليل على ذلك، يقول فيها:

## قصيدة من البحر الطويل:

فعولن مفاعلين فعولن مفاعيلن

فعولن مفاعلين فعولن مفاعيلن

سمعت بأمر ما سمعتُ بمثله      وقلّ حديث حكمه حكم أصله  
أيمكن أن للمرء في العلم حجة      وينهى عن الفرقان في بعض قوله  
هل المنطق المعنيّ إلا عبارة      عن الحق أو حقيقة حين جهله

فردّ عليه الشيخ جلال الدين السيوطي بقصيدة، نورد منها بيتين  
يقول فيها:

### من البحر الطويل:

عجبت لنظم ما سمعتُ بمثله      أتاني عن خبرٍ أقرُّ بُئْه  
سلامٌ على هذا الإمام فكّم له      لديّ ثناءً واعترافٌ بفضله  
ومن هنا ندرك قيمة هذا العالم الذي وقف الشيخ جلال الدين  
السيوطي أمامه مذهولاً لتبحّره في العلم.

وفاته:

توفي العلامة محمد بن عبد الكريم المغيلي عام 909هـ بقصر بوعلي  
التابع لزاوية كنتة حالياً بعد رجوعه إلى توات.

وألتبس من القاريء العذر على هذه المعلومات المقتضبة عن هذا  
الحبر الذي ذاع صيته فهو نار على علم.

وقصيدة المغيلي التي نحن بصددّها هي مدحٌ لرسول الله صلى الله  
عليه وسلم وتحتوي على ثلاثة وعشرين بيتاً تترجم إيمان الرجل وتمكّنه  
من اللغة العربية وبلاغتها. يقول مطلع القصيد:

## من البحر البسيط

مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن

مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن

بشراك يا قلبُ هذا سيّد الأمم      وهذه حضرةُ المختار في الحرم  
فمن خلال القصيدة نلمس - كما سنرى - أن المغيلي يهرع إلى رسول  
الله (صلعم) ويطلب منه الشفاعة عند الله من الذنوب التي اقترفها. وجلّ  
العلماء والصالحين رغم أعمالهم الصالحة التي يقدمونها وندرة وقوعهم في  
الزلل، إلا أنهم شديداً الخوف من غضب الله ومن عدم دخولهم الجنة.  
فنجد في أشعار الصوفية كثيراً من هذا الصنف. فعلى سبيل المثال  
يقول الصوفي يخاطب نفسه عند رحيله من دار الفناء إلى دار البقاء:

## من البحر الطويل:

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن

زادي قليلٌ ما أراه مُبْلَغِي      أَلزَادِ أَبْكَى أَمْ لِبُعْدِ الْمَسَافَةِ  
أُتَحَرِّقُنِي بِالنَّارِ يَا غَايَةَ الْمَنَا      وَفِيكَ رَجَائِي فِيكَ كُلَّ رَجَائِي

\*\*\*

وهذه قصيدة للشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي يقول فيها:

## من البحر البسيط:

مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن

مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن

بشراك يا قلبُ هذا سيّد الأمم      وهذه حضرةُ المختار في الحرم  
وهذه الروضة الغراء ظاهرة      وهذه القبة الخضراء كالعلم  
ومنبؤ المصطفى الهادي وحجرته      وصحبه وبقيع دائر بهم

وَسَلْ تَنْلُ كُلُّ مَا تَرْجُوهُ مِنْ كَرَمِ  
فَالْعَبْدِ ضَيْفٍ وَضَيْفِ اللَّهِ لَمْ يُضْمِ  
يَا مَنْ لِقَاصِدِهِ أَمِنْ مِنَ النِّقَمِ  
فَبَحْرٍ جُودِكَ مُورُودٍ لِكُلِّ ظَمِ  
يَبِيتُ فِي الْأَمْنِ فِي خَيْرٍ وَفِي نِعَمِ  
يَا أَفْضَلَ النَّاسِ فِي ذَاتٍ وَفِي شَيْمِ  
عَمْتُ عَلَى الْخَلْقِ فِي الْوَجْدَانِ وَالْعَدَمِ  
عَمْتُ عَلَى الْخَلْقِ مِنْ طِفْلِ إِلَى هَرَمِ  
وَأَنْتِ أَدْرَى بِمَا فِي الْقَلْبِ مِنْ أَلَمِ  
فَأَنْتِ أَهْلُ الثَّقَى وَالْجُودِ وَالْكَرَمِ  
عَرَفْتُ حَالِي وَإِنْ لَمْ أَحْكِهِ بِقَمِ  
أُودِي بِهِ الْكَسْرَ مِمَّا نَالُ مِنَ مُجْرَمِ<sup>(1)</sup>  
نَزِيلِكُمْ فِي أَمَانٍ غَيْرِ مِنْهَضَمِ  
سَعِيّاً عَلَى الرَّأْسِ لَا سَعِيّاً عَلَى الْقَدَمِ  
لِسَادَةِ هُمْ بُخُورِ الْفَضْلِ وَالْكَرَمِ  
فِي زُورَةٍ وَاقْتِرَابٍ وَافِرِ الْقَسَمِ  
فِي بَابِ أَفْضَلِهِمْ مِنْ أَصْغَرِ الْخَدَمِ  
يُغْنِي بِهَا عَنْ جَمِيعِ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ  
طَبْنَا عَنِ الْخُسْرَانِ وَالسُّنْدَمِ  
بَابِ الرَّجَا يَرْتَجِي أَمْنًا مِنَ النِّقَمِ

فَطِطْ وَعِفْ هَمُومَ كُنْتَ تَحْمِلُهَا  
يَا سَيِّدِي يَا رَسُولَ اللَّهِ خُذْ بِيَدِي  
يَا سَيِّدِي يَا رَسُولَ اللَّهِ خُذْ بِيَدِي  
يَا سَيِّدِي يَا رَسُولَ اللَّهِ خُذْ بِيَدِي  
يَا سَيِّدِ الرِّسْلِ يَا مَنْ ضَيْفٌ سَاحَتِهِ  
يَا أَكْرَمَ الْخَلْقِ مِنْ حَافٍ وَمُنْتَعِلِ  
يَا أَشْرَفَ الْأَنْبِيَا يَا مَنْ شَفَاعَتُهُ  
يَا صِفْوَةَ اللَّهِ يَا مَوْلى مَكَارِمِهِ  
إِنِّي فَقِيرٌ إِلَى عَفْوٍ وَمَرْحَمَةٍ  
وَقَدْ أَتَيْتُكَ أَرْجُو مِنْكَ مَكْرَمَةً  
فَالْحَالُ يُغْنِي عَنِ الشُّكُوى إِلَيْكَ وَقَدْ  
فَاشَفَعْتُ لِعَبْدِكَ وَاجِبُ كَسْرِهِ فَلَقَدْ  
يَا أَحْمَدُ يَا أَبَا بَكْرٍ وَيَا عَمْرُ  
وَقَدْ سَعَيْتُ إِلَى أَبْوَابِ حَجَرَتِكُمْ  
وَأَتَيْتُ مِنْ أُمِّ الْقُرَى يَرْجُو لُقْيَ كَرَمًا  
فَإِنْ قَبِلْتُمْ فِإِنِّي مُفْلِحٌ بِكُمْ  
يَا مَنْ أَبْجَلُ مَلُوكِ الْأَرْضِ قَاطِبَةً  
فَهَلْ عَسَى نَظْرَةً مِنْكُمْ لَزَائِرِكُمْ  
مُحَمَّدٌ وَضَجِيعَاهُ الَّذِينَ بِهِمْ  
يَا رَبِّ يَا رَبِّ يَا مَوْلَايَ عَبْدُكَ فِي

\* \* \*

(1) العُجْرُ جَمْعُ جَرْمَةٍ كَكَلِمَةٍ.

كما نجد شاعراً صحراوياً آخر يسلك نفس المنهج الذي اختطه الشاعر محمد بن النجيب، ألا هو الشيخ سيدي الكنتي، في قصيدة عدد أبياتها أربعة وسبعون بيتاً يطلب فيها من الله أن يخرج من فاقته ويتوسل برسول الله (صلعم).

### نبذة عن حياة العالم والأديب سيدي محمد الكنتي:

ولد العالم والأديب الشيخ سيدي محمد الكنتي عام 1765م وهو الابن الخامس للشيخ سيدي المختار الكبير. وقد ظهر نبوغه العلمي وشخصيته القيادية منذ نعومة أظفاره الأمر الذي جعل والده يهتم به اهتماماً خاصاً إلى أن اصطفاه من بين أخوته ليكون خليفته من بعده. وقد تقلد قيادة كنتة بعد وفاة والده عام 1811م وعرف عنه طيلة فترة حكمه الحنكة والدراية والعدل بين رعيته إلا أن فترة قيادته لم تدم طويلاً، قدرت بخمس عشرة سنة، انتقل بعدها إلى جوار ربه عام 1826م ودفن بجوار والده في بو الأنوار وهي مقبرة لرجالات كنتة.

وبالرغم من قصر هذه الفترة إلا إنه أسدى أعمالاً جليلة يستحق عليها الشكر والثناء، فقد ترك لنا آثاراً تاريخية وأدبية. فمما ترك من الآثار التاريخية يتمثل في مخطوطة «الطرائف والثلائد من كرامات الشيخين الوالد والوالدة»، وهو مخطوط نفيس يتناول جوانب من حياة عرب جنوب الصحراء.



أما الآثار الأدبية فكان ما تركه منها مجموعة من الأشعار، منها هذه القصيدة التي بين أيدينا، وهي واحدة من عشرات القصائد التي تغنى بها الشيخ محمد.

يقول الشيخ سيدي محمد الكنتي:

من البحر الكامل:

متفاعلن متفاعلن متفاعلن

متفاعلن متفاعلن متفاعلن

لجأ إليك يذلة وسؤال  
وتوسل بالمصطفى والآل  
تمتد في الأزمان والأحوال  
واغفر لنا واضفح عن البطال  
يا كاشف الأهوال والأكحال<sup>(1)</sup>  
يا منقذاً لعالي من الأوحال<sup>(2)</sup>  
لطفاً يدك رواسي الأجبال  
غيثاً يُغيث بصوّه الهطال  
أنعائنا ومصالحها بالحال  
شأن الكريم الرفق بالائتقال  
والفائز المحبوب منك بنال<sup>(3)</sup>

يا رب أوفي حيلة "محتال  
وتضرّع وتخضّع وتخشّع  
أوفي الصلاة عليه منك بلا مدى  
يا رب كفر بالمتاب ذنوبنا  
يا رب فرج كلّ داءٍ دائم  
يا رب نقّس كُرب كلّ شديدة  
يا رب ضاق خناق من عودته  
يا رب اسبل من خزائنك الملاّ  
يا رب نشكو بالمقال وتشتكي  
يا رب رفقاً بالعِيال فإنه  
يا رب عان لم ترش لم يتعش

(1) الأكحال: شدة المحل.

(2) الأوحال: جمع وحل، الطين.

(3) النال: العطاء.

يا رب أرجاء الفضاء مُعَبَّرَةٌ  
يا رب فانسخها بمزني حُفْلٍ  
يا رب جَلَّل عرى كل برِّيَّة  
يا رب أَخْلِف كُلَّ ظَنٍّ ربه  
يا رب إن لم تستجب دَعْوَى أَخِي  
يا رب أَخْلِف كُلَّ نَجْمٍ ناجم  
يا رب بَرِّدْ من لَظَى أنفاسِها  
يحدو به يا رب منها راعد  
يا رب قد قَنِطَ الأنام فأنزلن  
يا رب وانشر رحمةً وَسَّع بها  
يا رب ذاركنَا بلطف منعش  
يا رب قَدِّسْ بالزكاة نفوسنا  
يا رب طَيِّبْ بالتقى أنفاسُنَا  
يا رب انهكُنَا بعذب باردٍ  
يا رب وارفع دون لائحة السنا  
يا رب أرشدنَا لكل رشيدة  
يا رب لا تهتك ستورا صُنَّتْها  
يا رب لا تصرم من أشطان الولا

جالت بها الأرواح كُلَّ مَجَالٍ  
جونٌ تجود بوابلي دَيَّال<sup>(1)</sup>  
وخميلةٌ وَشِي الكلا يا وال  
من حدس خِرَاص وصاحب فال<sup>(2)</sup>  
خَوَجاً فمن نرجوه للإنزال  
وطحا الجهام بغيمه الجوال<sup>(3)</sup>  
بالعذب من صَفُو الحَيَا السلسال  
ويبوطه أن كع سابط آل<sup>(4)</sup>  
غيثاً مغيثاً دائِم التَّهْطَالِ  
تُحْيِي مَوَاتِ اليَدِ والأطلال  
لكبارنا وصغارنا والحال  
وانصر على القرناء والأفتال<sup>(5)</sup>  
والذكر والإخلاص والإقبال  
من صَفُو علم بالمعارف حال<sup>(6)</sup>  
ومشاهد الزُلْفَى عَطا الأسدال  
في القَال والأحوال والأفعال  
بعناية الإرفاد والأرفال<sup>(7)</sup>  
والقرب والزلفى إليك حبالِي

(1) الحُفْل: الملىء بالماء.

(2) الخِراس: القوال بالظن.

(3) ناجم: طالع، وطحا: أنبط، والجهام: السحاب الذي هراق مائه.

(4) يحدو به: يوقه، ويبوطه: يخلطه أو يضربه بالسوط، وكع: فتر، أي تباطأ عن المسير.

(5) الاقتال: جمع قتل بالكسر وهو العدد.

(6) انهكنا: بالغ في سقينا.

(7) الأرفاد والأرفال: التعظيم.

يا رب حلّل عقدة....الأزال  
يا رب بالذات العزيز جلالها  
يا رب لا تجعل عقوبة من أسا  
يا رب بالإسم العظيم وما به  
يا رب أرسل دَيِّمة تَنْهَلُ مِنْ  
يا رب بالذكر الحكيم بآيه  
يا رب طَيِّب بالهنا جرم الهوا  
يا رب بالهادي الأمين المصطفى  
يا رب لا تحمل علينا إِضْرَ مَنْ  
يا رب بالبیت الحرام وركنيه  
يا رب اسعِفْنَا بعين مرادنا  
يا رب بالقلم المصنون ولوحه  
يا رب سَخِّرْ عالم الدنيا لنا  
يا رب بالغوث المقرر رَسْمُه  
يا رب طَيِّب جرم لوح أغبر  
يا رب بالأقطاب بالأوتاد  
يا رب جَلِّبْنَا جلابيب الهنا  
يا رب بالسبع المَثَانِي والنسا  
يا رب كِذْ من كاذنا وابطِشْ به  
يا رب بالعین المحيطة بالحمى  
يا رب حِطْنَا من شَبَا ناب المَحْضُو

بعوارض تههم بعذب زلال<sup>(1)</sup>  
وبما لها من عزة وكمال  
في فطح واصل رزفة المتوالي  
سَمَّيت نفسك في عمى الأزال<sup>(2)</sup>  
تجويف ميم الرحمة الهطال  
بحروفه بالنقط بالأشكال  
وطارق الأوخام والزلال  
والأنبيا وطوائف الأرسال  
حَمَلْتَه ثِقْلاً من الأثقال  
بمطافه ومشاعر الإهمال  
واجعله مَرْضِيّاً بلا إخلال  
والعرش ذي المجد الرفيع العالي  
خَلَوْا من الأوجاع والأوجال  
وسطى لنظم قلائد الإبدال  
عادت بهيب دائم الإرسال<sup>(3)</sup>  
بالأخيار بالنجباء بالعمال  
والأمن والإيمان والأفضال  
والبكر والأنعام والأنفال  
وارجمه في جُبِّ الرّدى بخبال  
وبحرزك الحتمي من الصّوال  
ف وما يسوء وصائل الأفال<sup>(4)</sup>

(1) الأزال: الشدة والضيق.

(2) العمى: الطول.

(3) الهيف: ريح تأتي في الصيف من جهة الجنوب وترفع حرارة الأقاليم التي تمر بها.

(4) الشبا: جمع شباة، حد كل شيء.

والجيم والقاف العظيم البال  
أبرارهم وشرارهم لشمالي  
لَمَّا تَهَلَّلَ سَائِرُ الْأَشْكَالِ  
بالقهر والتسخير والإذلال  
شُمُ الملوكة وشامخُ الأَجْبَالِ  
سَخَّرَتْ بِحَرَكَهٍ لِلْكَلِيمِ النَّالِ<sup>(1)</sup>  
فضلاً تلبي دعوة السؤال  
فرتب أحوالي وينعم بالي  
أرجو سواك ربَّ في الأمال  
نِعْمًا وَخَضْبًا سَابِغَ الْأَذْيَالِ  
رحمان يا غَفَّار يا مُتَعَالِي  
للحال والماضي والاستقبال  
رَزَّاقُ بُرِّ الشَّجَى والخالي  
واقسم لنا الأوفى بلا مكيال  
والأرض قيومُ الجميع الوالي  
عَذْلًا لعمهم الرَّدَى يُوْبَالِ  
فَبَسَّطْتَ فِي الْأَرْزَاقِ وَالْأَجَالِ  
يُخَيِّي مَوَاتَ الْوَعْرِ وَالْإِشْمَالِ  
صَرَفَ الزَّمَانِ وَفَتَنَةَ الْأَمْهَالِ  
نَكَّدَ الْقَلَاءِ وَدَائِمُ الْأَمْحَالِ<sup>(2)</sup>  
الرزق الوسيح الوافر المتتالي  
في صَخِيهِ شُهْبِ الدُّجَى وَالْآلِ

يا رب بالظاء الرشيق ولامه  
يا رب طَوُّعٌ لِلْيَمِينِ مِنَ الْوَرَى  
يا رب بالنور الذي سَجَدْتُ لَهُ  
يا رب طَوُّعُ كُلِّ نَفْسٍ صَغْبَةٍ  
يا رب بالعز الذي خَضَعْتُ لَهُ  
يا رب سَخَّرَ لِي الْعَوَالِمَ مِثْلَ مَا  
يا رب بالسعداء الذين يُمْنِيهِمْ  
يا رب قَابِلٌ بِالْإِجَابَةِ دَعْوَتِي  
لبيك يا رَبَّ الْوَرَى فَأَجِبْ فَمَا  
لبيك مولانا الكريم فَأُؤَلِّنَا  
لبيك يا حَنَّان يا مَنَّان يا  
لبيك ذَارِكُنَا بِرَفَقٍ مَنَعَشِ  
لبيك يا فَتَّاح يا وَهَّاب يا  
لبيك أَرْزَاقُ الْعِبَادِ أَدْرَاهَا  
لبيك جَبَّارُ السَّمَوَاتِ الْعُلَى  
لبيك لَوْ عَاجَلْتُ بِالظُّلْمِ الْوَرَى  
لكن بِخُلْمِكَ يَا حَلِيمَ عَمَّرْتَهُمْ  
فَبِفَضْلِ جِلْمِكَ مِنْكَ عُدُّ وَأَفْضُ حَيَا  
وَاعْفُ وَعَافِ مِنَ الْبَلَايَا وَالْفَنَاءِ  
وَانصُرْ عَلَى دَهْرِ كَسَاهُ عُجُوسَةٌ  
بِعَوَارِضِ الدَّيْمِ الْعَوَارِضِ فَائِضِ  
وَأِدِّمْ عَلَى فَخْرِ السَّنَا أَشْنَى الثَّنَا

(1) النال: الجواد.

(2) النكد: الضيق والكمد.

أَزْكَى صَلَاةٍ يَسْتَهْلُ سَحَابُهَا      وَأَتَمَّ تَسْلِيمٍ عَلَى مَنْوَالِ  
مَا فَرَّجَ الرَّبُّ الْكَرِيمُ بِجَاهِهِ      كُرْبًا تُخَيِّرُ حِيلَةَ الْمُحْتَالِ

\* \* \*

## وقال أيضاً، من البحر الكامل:

### متفاعلن متفاعلن متفاعلن

#### متفاعلن متفاعلن متفاعلن

يا دائم الإحسان والمعروف  
وَطَرَحْتَ أَثْقَالَ اضْطِرَارِي بِالْقَنَّا  
رَجَمْتَ نَوَائِبَهُ بِكُلِّ شَدِيدَةٍ  
دهرٌ أَثْقَلَ سَمُومَهُ لِحَرُورِهِ  
لا تَخْلُفُ الْأَرْوَاحَ فِيهِ وَعُودَهَا  
بَخَلْتُ بِهِ كَفُّ الْحَيَاءِ وَأَغَقَمْتُ  
خَابَتْ ظُنُونُ النَّاظِرِينَ لِمَوْعِدِ  
ولنا بِرَعْدِكَ يَا كَرِيمَ تَعَلَّقُ  
نحن العيالُ وإن جنينا غُرَّةً  
فاغفرْ وتُبْ واضْفَحْ عن الجانين  
وَأَقْلَ عَثَارَ الْعَاثِرِينَ بِتَوْبَةٍ  
وَأَرِخْ سَوَاماً شَفَّهَا جَذَبَ الْقَلَا  
وَأَغِثْ بِغَيْثِ نَافِعِ رَعْدَ الْحَيَا  
يُنْهَلُ وَاكْفُهُ عَوَارِضُهُ عَلَى  
تَحْيَا الْبِلَادِ فَتَكْتَسِي مِنْ سُتْدُسِ الْأُ

وَأَقَيْتُ بَابَ نَوَالِكَ الْمَأْلُوفِ  
وَشَكَّوْتُ دَهْرًا أَزْمًا بِصُرُوفِ<sup>(1)</sup>  
فَتَّهَارُهُ لَيْلٌ بِجُنْحِ شُظُوفِ<sup>(2)</sup>  
وقضاؤه من زعزع وهيف<sup>(3)</sup>  
وبوعدها مُزْنَ الحيا لم ثوفِ  
رَجِمُ الْعَرَاءِ بِزَهْرهَا الْمَقْطُوفِ  
من نوءِ نَجْمِ كَاذِبِ مَخْلُوفِ  
بِإِجَابَةِ الْمَتَكَفِّفِ الْمَلْهُوفِ  
بِجَمِيلِ حَلِيمِكَ رَبِّ وَالْمَعْرُوفِ  
من أهل الجفا والمذهب المأووف<sup>(4)</sup>  
واسْثُرَ بِسَثْرِكَ عَوْرَةَ الْمَكْشُوفِ  
وَمَحُولُ مَرَعَاهَا وَطُولُ مَصِيفِ<sup>(5)</sup>  
بِجُودِ يَصُوبِ بِصَيِّبِ وَوَكُوفِ  
عَطَشِ الْقَلَا وَمَسَافِحِ وَحُقُوفِ<sup>(6)</sup>  
زَهَارِ وَشَيِّ مَطَارِفِ وَشُفُوفِ<sup>(7)</sup>

(1) الأزم: الذي يعرف بشدة القحط والعاض، والصروف. النوائب.

(2) الشظوف: الشدائد.

(3) الزعزع: الريح الشديدة.

(4) المأووف: المصاب بأفة مهما كان نوعها.

(5) السوام: الماشية، وشفها: أهزلها.

(6) المسافح: الأمكنة التي تصب الماء، والحفف: ما أعوج من الرمل، والحفوف: جمعه.

(7) المطارف: جمع مطرف، وهو الرداء، والشفوف من الثياب: الشفاف الرقيق.

يحدو به رَعْدٌ تجلجلَ مُوهناً  
 تمرى سحائبه الجنوب فتَنهَمي  
 بمزاج تسنيمٍ تعلُّ به البرى  
 لا ينثنى لعظيم ما اجتَرَحَ الورى  
 هي أمة مرهومة ونبيها  
 هو قد دعاك لها بأن لا ترذ بالسد  
 فأجبت دعوته وأنت مُجيب مَنْ  
 فأجبت دُعانا يا كريمٍ فإننا  
 كم نعمة لك لا يُقام بِشُكرها  
 فأدِم خِمالَ ما مَنَنْتَ به ولا  
 يا رب يا رباه يا  
 فَرِّجْ كروبَ المسلمين فحاجهم  
 بجلالك الأسنى بذاتك بالسنى

فكأنا هو ضاربٌ بدفوف  
 ثَجَّأَ بما في بحرك المكفوف<sup>(1)</sup>  
 محمود طالعة المغرب كثيف<sup>(2)</sup>  
 من سوء معتقِدٍ وشؤم قروف<sup>(3)</sup>  
 الرحمة المهداة للملهوف  
 نية الجماد وكان جَدُّ رؤف<sup>(4)</sup>  
 يَشْتَغِفُ أو يَشْتَكُفِ منجم خوف<sup>(5)</sup>  
 ضعفاء تكفُل بالمنا وخريف  
 وألَيْتَ وإصلها بلا تطفيف  
 تَقْطَعُ عوائد بِرِّك المعروف  
 مَنْ عَمَّ بالتكليف والتعريف  
 وَقِفْ عليك وضيعهم وشريف  
 بِجَمَالِك الأبهى بلا تكييف

\*\*\*

(1) ثَجَّأَ: أي صبا، وتمرى: تدر، من مرى الناقة يمر بها، إذا مسح ضرعها لتدر.

(2) البرى الأرض والمغرب العاقبة.

(3) القروف: الكثير البغي.

(4) السنة التي لم يصبها مطر.

(5) منجم: الطريق.

## وهذه قصيدة في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم للعلامة محمد محمودالارواني.

### من البحر الكامل:

متفاعلن متفاعلن متفاعلن

متفاعلن متفاعلن متفاعلن

لاحت لنا والحمد للجبّار  
مَثَوَى النَّبِيِّ المصطَفَى المُختارِ  
خيرُ البلادِ وخيرُ كلِّ ديارِ  
بلدُ الحبيبِ خَيْرُ كُلِّ قَرَارِ  
ومُهَاجِرِي الأصحابِ والأنصارِ  
ومُنزِلِ الألوحي والأَسرارِ  
وَمَتَّعِي في رَوْضَةِ الأزهارِ  
وَسَلِي المُرَادَ به على التُّكْرَارِ  
أرجو رِضَاكَ بِحُرْمَةِ الزُّوَارِ  
ولِصَاحِبِ لكَ في ظلامِ الغارِ  
حَفْصِ مُبِيتِ الدينِ في الكُفَّارِ  
مُتَوَسِّلًا لَكَ بالنبيِّ مَزَارِي  
مُتَشَفِّعًا به بَعْدَ الاستِغْفَارِ  
فَأَقْبَلْ مَتَابِي وَاذْخُنْ أَعْدَارِي  
والْحَالِ والآتِي على استمرارِ  
وكَذلكَ توفيقِي وجَبْرُ عِثَارِي  
وَقَتِ بيومٍ أو دُجَى الأشْحَارِ<sup>(1)</sup>  
في قَوْلِكَ اذْغُونِي وفي الآثَارِ

هَـذِي مَعَالِمَ طَيِّبَةِ الأنوارِ  
هَـذِي النخيلُ لِطَيِّبَةِ وربوعها  
هَـذِي ديارُ مُحَمَّدٍ وبلاده  
هَـذَا البقيعُ وَذَا المُصَلَّى حَبْذا  
بَلَدٌ به سَكَنَ النبي وأله  
بَلَدٌ به جَبْريلُ كان مُردداً  
يا نفسُ هَـذَا وَقْتُ وِصْلِكَ فَارْتَعِي  
يا نفسُ هَـذَا قَبْرُ أَحْمَدَ سَلِّمِي  
يا خَيْرُ خَلْقِ الله جَعْتُكَ زائراً  
فَلَكَ السَّلامُ مِنَ المُهَيِّمِينَ دائماً  
ولِصَاحِبِ وَخَلِيفَةِ لُكُما أَبِي  
يا ربِّ إِنِّي لَيسَ لي إِلا الدُّعَا  
وَوَظَلَمْتُ نَفْسِي ثم جِئْتُكَ تائباً  
إِنِّي مُقِرٌّ بِالْعُيُوبِ جَمِيعُهَا  
وَإِغْفِرْ ذُنُوبِي كُلَّهَا فيمَا مَضَى  
تَجِبْتُ بِلوْجِكَ يا كَرِيمُ سَعَادَتِي  
وَأَجِبْ دُعَائِي في هَـنا وَبَكلِ ما  
أنتَ الَّذِي بَشَّرْتَنَا بِإِجَابَةِ

(1) بكل ما وقت ما زائدة.



أَنْتَ الَّذِي يَسَّرْتَ وَضَلِّي بِالْمَنَى  
وَبِكَ النَّسِيمُ لَنَا بَرُوضَةٌ جَنَّةٌ  
يَا خَاتَمَ الرُّسُلِ الْكَرَامِ قَصَدْتُكُمْ  
أَرْجُو مِنَ اللَّهِ الْكَرِيمِ بِجَاهِكُمْ  
وَهَدَى لِنَفْسِي لَا ضَلَالَةَ بَعْدَهُ  
وَالْحِفْظُ لِلْعِلْمِ النَّفُوعِ جَمِيعُهُ  
وَتَقَى يُزِيلُ غُيُوبَ نَفْسِي كُلِّهَا  
حَتَّى يَرَى هَذِي النَّبِيَّ جِبِلَّتِي  
مَعَ طَوْلِ عُمرٍ فِي الْعِبَادَةِ دَائِمًا  
وَعَنِّي أَدُومَ عَلَى أَدَاءِ حَقُّوقِهِ  
وَوَقَايَةَ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا وَفِي  
وَالْحِفْظِ مِنْ نَفْسِي وَابْلِيسِي الْهَوَى  
وَقَضَاءِ كُلِّ مَآرِبِي وَمَقَاصِدِي  
وَلِوَالِدَيَّ جَمِيعِهِمْ وَمَشَائِخِي  
وَأَحِبَّتِي وَالْمُسْلِمِينَ جَمِيعَهُمْ  
أَرْجُو بِجَاهِكَ لِلْجَمِيعِ شَفَاعَةً  
وَرِضًا لِلَّهِ لِكُلِّنَا وَسَلَامَةً  
بَلْ لَا وَجَاهُكَ عِنْدَ رَبِّكَ فَضْلُهُ  
أَنْتَ الَّذِي مِنْ نُورِكَ الْأَنْوَارُ قَدْ  
وَالْأَنْبِيَاءُ قَدْ أُخْبِرُوا بِكَ كُلُّهُمْ  
وَوُلِدَتْ تَذَكُّرُ سَاجِدًا مُتَطَهِّرًا

مِنْ شَاسِعِ الْبُلْدَانِ وَالْأَقْطَارِ  
قَدْ فَاحَ فَوْقَ الْمِسْكِ وَالْأَعْطَارِ  
مُتَوَسِّلًا بِكَ فِي قَضَا أَوْطَارِي  
غُفْرَانِ ذَنْبِي أَوَّلِ أَوْطَارِي<sup>(1)</sup>  
وَسَلَامَةً مِنْ كُلِّ مَا الْأَخْطَارِ  
وَالْفَهْمُ فِيهِ بِكُلِّ مَا الْأَشْطَارِ  
وَتَبَوُّتُهَا بِطَرِيقَةِ الْأَبْرَارِ  
وَشَعَارِي الْقُرْآنِ مِثْلَ دِئَارِي<sup>(2)</sup>  
وَهَذَانِي الْجُحَّالِ وَالْفُجَّارِ  
مَعَ صَالِحِ الْأَوْلَادِ وَالْأَذْرَارِ  
وَضَعِي بِقَبْرِي خُمُسَةَ الْأَشْبَارِ  
وَمِنَ الدُّنَى وَالذُّلِّ وَالْإِعْسَارِ  
وَحَوَائِجِي فِي ذِي وَتِلْكَ الدَّارِ  
وَقَرَاتِي كُلَّ مَعِ الْأَصْهَارِ  
وَلِكُلِّ مَنْ أَوْصَى وَمَنْ فِي الْجَارِ<sup>(3)</sup>  
وَالْغَفْوِ وَالْغُفْرَانِ مِنْ غَفَّارِ  
مِنْ كُلِّ خَزْيٍ أَوْ عَذَابِ النَّارِ  
قَدْ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ بِالْأَشْهَارِ  
خُلِقْتُ وَكُلَّ الْفُضْلِ وَالْأَخْيَارِ  
وَتَوَسَّلُوا بِكَ عِنْدَ ذَا الْقَهَّارِ  
حَقًّا مِنَ الْأَذْنَسِ وَالْأَقْدَارِ

(1) أوطاري: مخفف طاري.

(2) الجبلية: الطبيعة، والشعار: ما يلي الجسد من الثياب.

(3) الجار: الجوار.

فِي لَيْلِ مَوْلِدِكَ الْعَظِيمِ تَسَاقَطُ الـ  
 وَالنَّارُ قَدْ خَمَدَتْ وَغَاضَتْ سَاوَةً  
 وَالْقَلْبُ وَقْتُ صَبَاكَ شَقَّ تَطَهَّرَ  
 مَلَأُوهُ بِالْعِلْمِ الْحَقِيقِيِّ حِكْمَةً  
 وَالْفَيْءُ مَالٌ إِلَيْكَ بَعْدَ عَمَامَةٍ  
 فَلَكَ السِّيَادَةُ فِي الْوَزَى أَرْسَالُهَا  
 وَلَكَ الرِّسَالَةُ فِي الْخَلِيقَةِ كُلِّهَا  
 أَنْتَ الَّذِي عَرَقَ الْبُرَاقَ لِقَضَائِهِ  
 وَبَلَّغْتَ مَا لَمْ يَبْلُغَنَّ مَلَائِكُكَ  
 رَفَعَ الْحِجَابَ حِجَابَكُمْ وَذَنُوتَ مِنْ  
 أَوْحَى إِلَيْكَ أَوَامِرًا وَنَوَاهِيًا  
 فَاتَّيْتُ بِالْقُرْآنِ أَعْجَزَ مَا يُرَى  
 أَهْلُ الْبَلَاغَةِ وَالْفَصَاحَةِ كُلُّهُمْ  
 بَلْ أَعْجَزَ الثَّقَلَيْنِ عَنْ أَنْ يَأْتِيَا  
 فَانْقَادَ مَنْ شَاءَ إِلَهُ صِلَاخُهُ  
 ثُمَّ الْعِدَا أَعْدَاكَ عَادُوا كُلُّهُمْ  
 قَدْ مَدَّكَ الْمَوْلَى بِجُنْدِ مَلَائِكِ  
 فَانْقَلَبَ جَمْعُهُمْ بِدِينِ حَقِيقَةٍ  
 أَصْنَاءُ وَالْكُفَّاءُ بِالْإِذْبَارِ  
 وَأَنْشَقَّ إِيوَانُ لِذِي الْأَشْرَارِ  
 مِنْ حَظِّ شَيْطَانٍ وَذِي الْأَغْيَارِ  
 قَبْدًا هُنَاكَ الْأَمْرُ بِاسْتِقْرَارِ  
 قَدْ ظَلَّلَتْكَ بِرُؤْيَا الْأَبْصَارِ<sup>(1)</sup>  
 أَنْمَلَكَهَا وَالْأَنْبِيَا الْأَصْدَارِ  
 مِنْ مَالِكِ الْإِيرَادِ وَالْإِصْدَارِ  
 فِي لَيْلَةِ الْإِسْرَا لِرَبِّ سَارِ<sup>(2)</sup>  
 وَعَلِمْتَ مَا لَمْ يَعْلَمَنَّ الْقَارِي<sup>(3)</sup>  
 قُرْبَ بِلَا كَيْفٍ وَلَا إِحْصَارِ  
 وَعِبَادَةٌ جَاءَتْ عَلَى الْمِقْدَارِ  
 بِشَرِيعَةٍ طَهَّرَتْ مِنَ الْأَكْثَارِ  
 عَجَزُوا ذَوِي نَثَرٍ وَذِي أَشْعَارِ  
 مِنْ مِثْلِهِ فِي أَيْمَانِ الْأَغْصَارِ  
 بَاءَ الْكُفُورِ بِعَجْزِهِ وَوَبَارِ<sup>(4)</sup>  
 بِدُعَاكَ صَرَعَى فِي قَلْبٍ نَارِي<sup>(5)</sup>  
 قَطَعُوا أَصُولَ الْكُفْرِ بِاسْتِضْعَارِ  
 تَعِشُوا لَعَا لَهُمْ بِكُلِّ الْعَارِ<sup>(6)</sup>

(1) الفَيْءُ: الظِّل.

(2) الْقَارِي: مخفف القاريء.

(3) قوله لرب يتعلق بشار، الذي هو حال، ووقف عليه بالسكون ضرورة أو على لغة ربيعة.

(4) وبار: رجع عن غيه.

(5) في قلب ناري أشار إلى موقعه بدر التي كانت أول لقاء بين الإسلام والكفر.

(6) انفل: انهزم وتراجع.

فَسَقَيْتَهُمْ شَمَّ الْحُسَامِ بِهِذِهِ  
وَاللَّهُ أَظْهَرَ دِينَهُ بظهوركم  
فهناك قد مات الحسودُ بغيظه  
أما الذين هَدَاهُم الهادي إلى  
والله مَنْ عَلَيْهِمْ إِذْ أَخْرَجُوا  
فَأَجَابَ كُلَّهُمْ دُعَاكَ بِبَذْلِهِمْ  
قد جَاهَدُوا وَاللهُ دُونَ غَنِيمَةٍ  
ولك انشِقَاقُ البدرِ جاءَ مثبتاً  
كَمْ مِنْ عَليْلِ قَدْ شَفَّاهُ شِفَاكُمْ  
وكذاك نَسِجُ الْعَنَكَبُوتِ بَغَارُكُمْ  
أَنْتَ الَّذِي نَبَعَ النَّمِيرَ بِكَفِّهِ  
وَالشَّاةُ دَرَّتْ وَالْحَجَارَةُ سَلَمَتْ  
وَالذُّبُّ أَعْجَبَ مِنْ فَصَاحَةِ قَوْلِهِ  
وَانْهَلَّ قَطَرُ الشُّحْبِ عِنْدَ دُعَاكُمْ  
حَتَّى أَتَاكَ مَرِيدُهَا إِذْ مَلَّهَا  
وَكَذَا الدَّرَاغُ بِسُومِهِ أَهْدَى لَكُمْ  
وَالْبِئْرُ فِيهِ مُلُوحَةٌ وَبِتَفْلَةٍ  
وَكَذَا الْغَزَالَةُ سَلَّمَتْ وَبِكَفِّكُمْ  
وَجَرِيدَةُ صَارَتْ أَشَدَّ مَهْنِدٍ  
وَالْعَيْنُ نَائِمَةٌ وَقَلْبُكَ نَاطِلٌ

وَبِتَلِّكَ شَقِيَّاهُمْ بِعَايِي الْقَارِ<sup>(1)</sup>  
حقاً عليهم أيما إظهار  
وَلَبِئْسَ مَأْوَى الْغَادِرِ الْخَتَارِ<sup>(2)</sup>  
نورِ الْهُدَى قَدْ آمَنُوا بِوَقَارِ  
غَيْهَبِ الْخَسِرَانِ وَالْأَوْقَارِ<sup>(3)</sup>  
لِلنَّفْسِ وَالْأَمْوَالِ بِاسْتِثْقَارِ  
لِحَيَاتِهِمْ فِي السَّمُوتِ دُونَ ضِرَارِ  
فِي الْمُسْنِدَاتِ صَحِيَّةُ الْأَخْبَارِ  
وَبَلَسَ رَاحَتِكُمْ بِفَضْلِ الْبَارِي<sup>(4)</sup>  
وَعَجَائِبِ فِي الْغَارِ لِلْأَفْكَارِ  
قَدْ فَاقَ مَاءَ الْبَحْرِ وَالْآبَارِ<sup>(5)</sup>  
وَالجَذَعُ حَنْ كَمْشِيَّةِ الْأَشْجَارِ  
وَالضُّبُّ أَغْرَبَ عَنْكَ بِالْإِقْرَارِ  
فِي سَبْعَةِ بِالْوَيْلِ وَالْمِذَارِ  
قَدْ عَوَتْ فَانْجَابَتْ إِلَى الْأَعْوَارِ  
وَشَكَا الْبُعَيْرُ إِلَيْكَ بِالْإِكْتَارِ  
قَدْ صَارَ حُلُوى دُونَمَا لِشُكَّارِ  
صَمِّ الْحَصَى شُبْحَنَ بِالْإِذْكَارِ  
مَنْ لَمِسَ كَفْلِكَ دُونَمَا لِإِنْكَارِ  
وَالْعَقْلُ لَا يَسْهُو عَنِ التَّذْكَارِ

(1) القار: القطران، والأنبياء: البالغ النهاية في شدة الحرارة.

(2) الختار: الغادر.

(3) الغيهب: الظلمة، والأوقار: الأحمال، جمع وقر.

(4) الباري: مخفف.

(5) النمير: الماء العذب.

أَشْبَعْتَ أَفْوَاجاً بُمْدٍ وَاحِدٍ      وَسَقَيْتَهُمْ بِأَنْامِلِ الْأَمْطَارِ  
لَا ظِلٌّ لَا أَثَرًا لِمَشْيِكَ سَيِّدِي      وَالطُّولُ يَقْصُرُ مَعَكَ فِي التَّشْيَارِ  
كَمْ آيَةٌ لَكَ لَا تُحَدُّ لِوَاصِفٍ      آيَاتُكُمْ جَلَّتْ عَنِ الْأَسْفَارِ  
فَلَكَ انْتَهَى فِي الْفَضْلِ كُلُّ فَضِيلَةٍ      وَلَكَ انْتَهَى فِي الْفَخْرِ كُلُّ فَخَارٍ

\* \* \*

## من ألوان الشعر الصحراوي

### الوعظ والإرشاد:

شاعر الصحراء هو لسان حال أهله، تارة يهجو أعداء بني جلدته وتارة أخرى يمدحهم، وثالثة يعظهم ويرشدهم، فإذا لمس منهم ممارسات خاطئة فهو المراقب لهم في تحركاتهم وسكناتهم. فهذه القصيدة التي أعرضها للعلامة الصوفي الشيخ المختار بن أحمد الكنتي أحسن من خلالها أنه لمس تكالبا على الدنيا ولذاتها الفانية فأخذ يذكر بأن كل نفس ذائقة كأس الموت مثلما قال الشاعر.

الموت كأس كل الناس ذائقه      والقبر دار كل الناس ساكنه  
وكأنه يستأنس بقول الله تعالى: «بسم الله الرحمن الرحيم كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور» صدق الله العظيم.

فشاعرنا عالم صوفي وشاعر، وبذلك توافرت له الأساليب كافة، يطلب من أبناء جلدته أن يتزودوا بالتقوى والعمل الصالح.

\*\*\*

بيتان للشاعر الصوفي الشيخ المختار بن أحمد الكنتي رحمه الله:  
باب المهيمن كل الناس داخله      واستشعر النفس أن الموت تأتيها  
وارحل بزداد من التقوى تقدمه      واستصحب العزم إنه موأتيها

\*\*\*

كتب الشيخ باي بن عمر هذه الوصايا الصالحة المفيدة إلى أمير  
من الأمراء قائلاً له:

«أوصيك بتقوى الله ونفع المسلمين وعدم السعي في مضرة أحد، فإن  
نفعتهم حالت عليهم الرحمة، والساعي في مضرة أحد منهم متعرض للنقمة  
واللعنة، ولا تغفل عن ذكر الله في جميع أحوالك، واجعل أمره أمامك،  
ولا تغفل عن ذلك فيؤوبك الله من رحمته أعاذك الله من ذلك ولا توسع  
بطنك لأموال الناس فإن بطناً امتلأ منها حقيق أن يمتلىء من النار ويحل  
صاحبه البوار وما رخصت لك فيه أو رخص لك أحد فيه كائناً من كان  
فاستفت فيه نفسك واقتصر منه على الأوسط واحذر من ضلال المسلمين  
ففي الحديث الصحيح: «ضالة المؤمن من حرق النار».

\* \* \*

وقال أيضاً:

أوصيك بتقوى الله ولا تكن من الغافلين فاحفظ الصلوات والأوقات  
والأذكار والدعوات، وصيل الرحم، واصبر على الرعية، ولا تأكل حقوقها،  
وتذكر الموت وحسرة الفوت والمصير إلى التراب وفجأة الموت وظلمة  
القبر وبلاء الجسد ومصيره للدود والقيح والصدید. واشتغل بما ينفع في  
ذلك عن لذات هذه الدار الفانية فلا تشغلك هذه الشواغل التي هي سراب  
عن ذكر الله والعمل لوجهه وأداء الصلاة بطهارتها في وقتها، ولا تطل  
الأمل وتترك العمل فإن الأمر جدّ ولعل الأجل حضر وأنت عنه غافل.  
فعليك بتقوى الله والسعي في مصالح المسلمين قولاً وفعلًا فذلك هو  
أفضل عبادتك وسبب نجاتك. قال صلى الله عليه وسلم: السلطان ظل  
الله في الأرض يأوي إليه كل مظلوم من عباده فإذا عدل كان له الأجر  
وعلى الرعية الشكر وإذا جار كان عليه الاصر وعلى الرعية الصبر إذا

جارت الولاة قحطت السماء وإذا ضاعت الزكاة هلكت المواشي، وإذا  
ظهر الزنا ظهر الفقر والمسكنة. قال صلى الله عليه وسلم: «من ولي من  
أمر أمتي شيئاً فحسنت سريره رُزقَ الهيبة».





## الفصل السادس

الشعر في مطح وضم الشاخي!!



## مطبخ الشاي وكمه

لون جديد تغنى به شاعر السودان الغربي ألا  
وهو ما يُعرف بالأشاي خمر الصحراء:

الرجل في جنوب الصحراء لا يهيمه في يومه إلا شيطان: شرب الشاي  
الأخضر في الصباح مع صحن من اللحم المشوي. وقد سألت العديد من  
أهالي تنبكت عن عادة تناولهم للشاي واللحم المشوي يومياً فأجابوني:  
وكيف لنا أن نقاوم عنت الصحراء؟

والرجل الصحراوي عُرف بالكرم المُفرط، فأول ما يقدمه لضييفه كوب  
الشاي الأخضر، وهو يعد عندهم رمزاً من الرموز التي لها وقع في أنفسهم.  
فرجل الصحراء يستطيع أن يبقى بدون أكل لفترة من الزمن ولكن لا يستطيع  
أن يبقى بدون شرب الشاي، وبذلك نجدهم دائماً يبحثون عن بديل للشاي  
بحرق الحلبة بدلاً من الحشيشة<sup>(1)</sup> أو بحرق نبات الزعتر إلخ...

وهذا شاعرنا عيسى بن محمد يطري الشاي بقصيدة تحرك بها وجدانه  
تتكون من خمسة عشر بيتاً:

مطلعها:

إن الأشاي لمذبة للسعار      عن كل ذي قدر من الأخيار

(1) الحشيشة: هي المادة التي يصنع منها الشاي.

ويقول شاعر آخر يمدح الشاي وهو الشاعر بن الصادق في قصيدة  
تألف من ثمانية عشر بيتاً:

ألا لهف نفسي من مبيتتي ليلة على القرّ والمفتول ناءٍ وشاسعُ

\* \* \*

ويقول الشاعران سليمان الحوات والخليفة بن المصطفى أبياتاً في نفس  
المضممار. فأدباء الصحراء منهم من يمدح الشاي وما أكثرهم، وهناك من  
يذمّ شاربهِ ويعتبر شاربهِ فعل بدعة شنيعة. من بين هؤلاء الشعراء الفقيه  
محمد إفالت نظم قصيدة تتكون من تسعة أبيات مطلعها:

اتاء شاربهِ يلهو كسكرانا ولا يزال من الضلال حيرانا

\* \* \*

ورد عليه الشاعر عيسى بن محمد بقوله:  
أتاي من يعم الرحمان مولانا لا ينبغي كفرها سراً وإعلانا

\* \* \*

وما احتفل شاعر الصحراء بالشاي، إلا لقيمته ذلك أنه يشكل غذاء  
تفوق فائدته التغذية لتحقيق نشوة خاصة، يتذوق معها الصحراوي كل  
معاني الأصالة والارتباط بعادات وتقاليد وتاريخ بلاده.

ويقول عيسى بن محمد:

من بحر الكامل:

متفاعلن متفاعلن متفاعلن

متفاعلن متفاعلن متفاعلن

إن الأنا لمذبة للعار عن كلّ ذي قدرٍ من الأخيار

مَنْ كَانَ ذَا عِلْمٍ وَذَا مِقْدَارٍ  
 مَا دُونَهُ فَحَذَارٍ مِنْهُ حَذَارٍ<sup>(1)</sup>  
 فَتَعِدْهُ لِلشَّرْبِ أَوْ لِلْعَارِ<sup>(2)</sup>  
 لِلْمَاءِ مُحْتَرِساً مِنَ الْأَكْذَارِ  
 طَعِمِ الْآتِي الْأَجُودَ الْمُخْتَارِ  
 كَالطَّبْلِ وَالْبِرَادِ وَالْمَجْمَارِ<sup>(3)</sup>  
 تَنْظِيفُهَا كَلَامٌ مِنَ الْأَقْدَارِ<sup>(4)</sup>  
 إِلَّا إِذَا كُنْتَ فِي الْأَسْفَارِ  
 وَعَشِيَّةٌ تَسْلَمُ مِنَ الْإِقْتَارِ  
 وَحَدِيثُهَا صَافٍ مِنَ الْإِضْجَارِ  
 وَأَفْوَكُ تَسْلُوكِ مَسْلُوكِ الْأَحْرَارِ  
 وَغَفِيرُ لَنَا مَا كَانَ مِنْ أَوْزَارِ  
 قَدْ جَاءَ بِالْبُشْرَى وَبِالْإِنْدَارِ  
 وَالتَّابِعِينَ أُولِي الْعَلَى الْأَبْرَارِ

هُوَ عُذَّةٌ لِلضَّيْفِ حَقّاً سِيماً  
 فَعَلَيْكَ بِالْمِفْتُولِ لَا تَرْكُنْ إِلَى  
 لَا تَغْتَرِرْ بِسِوَاهُ مِنْ كَمَكْرَكِبِ  
 وَالزَّمْ مِنَ الْمِفْتُولِ أَجُودُهُ وَكُنْ  
 وَتَجَنَّبِ النِّعْنَاعَ فَهُوَ مَكْدُرٌ  
 وَلِتَلْتَزِمِ تَكْمِيلَ آلَةِ شُرْبِهِ  
 وَكُؤُوسِهِ وَالزَّيْفَ وَالْمَغْرَاجَ مَعَ  
 وَاحْذَرِ مِنَ الْإِبْرِيْقِ فَهُوَ مُكَدَّرٌ  
 وَالزَّمِ إِدَامَةَ شُرْبِهِ وَقْتَ الضَّحَى  
 بِجَمَاعَةٍ فَضْلَاءٍ يُحَسِّنُ حَالُهَا  
 وَأَقِمُّهُ حَتَمًا لِلْأَفَاضِلِ حَيْثُمَا  
 يَا رَبِّ فَارْزُقْنَا حَلَالًا وَأَهْدِنَا  
 ثَمَّ الصَّلَاةَ مَعَ السَّلَامِ عَلَى الَّذِي  
 وَالْآلِ وَالْأَصْحَابِ خَيْرُ أُولِي النَّهْيِ

\*\*\*

(1) المِفْتُولُ: مَنْ أَجُودُ أَنْوَاعِ الشَّايِ.

(2) الْمَكْرَكِبُ نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ الشَّايِ وَالْعَارُ كَلِمَةٌ حَسَانِيَّةٌ مَعْنَاهَا الضُّيُوفُ.

(3) الطَّبْلُ وَالْبِرَادُ وَالْمَجْمَارُ أَدَوَاتُ الشَّايِ.

(4) الزَّيْفُ الْمُنْشَفَةُ وَالْمَغْرَاجُ أَدَاةٌ مِنْ أَدَوَاتِ الشَّايِ.

## ويقول حتحا بن الصادق:

### من بحر الطويل:

#### فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن

على القرّ والمفتول ناءٍ وشاسعٌ<sup>(1)</sup>  
وساوسٌ تجري من لظاها المدامعُ<sup>(2)</sup>  
تناهت لديه بالهموم الدوافعُ<sup>(3)</sup>  
ومغراجهم وقت الغدية طالعُ  
وبرادهم بين الأحبة لامعُ  
نجوم الداراي حين تصحو المطالعُ  
بوابر بحر سبقه الشاه شائعُ<sup>(4)</sup>  
وخضراء ذاك الوصف للفضل جامعُ<sup>(5)</sup>  
تُغور العذارى حين تُنضي البراقعُ<sup>(6)</sup>  
ينابغ شعير من طويل هوامعُ<sup>(7)</sup>  
تظللنا منها الشيوف القواطعُ  
حرام فمفهوّم له لك شافعُ  
كما قاله الحجاج واللّه مانعُ  
يُصلى به إلّا علته الرّوادعُ

ألا لهف نفسي من مبيتي ليلةً  
مبيتٌ يُضاهي ليل صبّ تدعهُ  
إذا المرء لم يعدم شذاهُ فإنه  
وبينا أمّني النفس وافيت فتيةً  
وكاساتهم صف على الطبل واحدٌ  
كما يلمع البدر التمام وحولهُ  
رموا فيه كيل الكأس مّا تضمّنت  
وجرد ذو درعين بيضا نقيه  
وتبسّم في ذاك الكؤوس كأنها  
فلما رشفت الكأس منها تفتقت  
فقالوا: أعنا بالدليل، فإننا..  
فقلت لهم يكفي لنا كل مُسكرٍ  
أليس بيت اللّه يشربُ دائماً  
له من هوى الطاغوت بدونها

(1) القرو الضمر: شامع بعيد.

(2) الصبا: العاشق، وتدعه: تدفعه دفعاً عنيفاً.

(3) شذاه: رائحته.

(4) كيل: الكأس: ملؤه.

(5) ذو درعين: معناه حجر السكر في لفافتين من ورق أخضر.

(6) البراقع: جمع برقع ما تضعه المرأة على الرأس.

(7) هوامع: سوائل.

سوى الباطن الذي له ليس وحده      كفيلاً ولا منه الأتى والمجامعُ  
ولا غرو أنّ الماءَ يسمع صوتَه      قليلاً وفي ملء السقا هو هاجعُ  
كذلك إنكار المسائل صادرُ      من الجهل، والجهالُ قدماً تنازعُ

\* \* \*

ويقول الشاعر سليمان الحوات:

من البحر الطويل:

مفعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن

وهيموا بشربكم أتاي فإِنَّهُ      فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن  
وكونُوا عليه مدمنين فَإِنَّهُ      حلال وليس في الحلال ملامُ  
يثير نشاطاً يبسط الكفَّ بالندى      شفاءُ النفوس إن عراها سقامُ  
إلى غير هذا من منافع جربت      فمن ثمَّ كلُّ شاربيه كرائمُ  
وقا بها في السالفين إمام      وقا بها في السالفين إمام

\* \* \*

ويقول آخر:

من البحر الطويل:

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن

شربنا كؤوساً يعلم اللّهُ أَنَّها      فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن  
منعنة حمراء كالخمر طعمها      تُهيجُ للعشاق ما في الضمائر  
ولا عيبَ فيها غير جبر الخواطرِ      ولا عيبَ فيها غير جبر الخواطرِ

\* \* \*

ويقول الخليفة بن مصطفى:

من البحر الطويل:

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن

إذا لم نجد إلا النملة مشربا      شربنا ولم نعبأ مقالة ذي عدل<sup>(1)</sup>  
فإن وُجد المفتول قُلنا لنملة      مقالتها للنمل في سورة النمل

\* \* \*

ويقول آخر:

من البحر البسيط:

مستفعِلن فاعِلن مستفعِلن فاعِلن

مستفعِلن فاعِلن مستفعِلن فاعِلن

الضيفُ دون الأتاي اليوم مُكرمه      لم يجد شيئا وإن جَلَّت فوائدهُ  
ومن سقى ضيفه الأتاي أكرمه      ولا يُعاب وإن قَلَّت موائده  
بذا جرث عادة الأيام وانحسبت      والدهر لا بد أن ترعى عوائدهُ

\* \* \*

الفقيه محمد أفالت حرم التاي وجعل شربه بدعةً شنيعةً، ونظم في ذلك قصائدَ منها قوله:

من بحر البسيط

مستفعِلن فاعِلن مستفعِلن فاعِلن

مستفعِلن فاعِلن مستفعِلن فاعِلن

أتاءٍ شاربهُ يلهو كسكرانا      ولا يزالُ من الضَّلَال حيرانا

(1) النملة: نوع من ورق الشاي/ قوي المذاق.



أتاءٍ لم يك من أفعال سيدنا  
ولا علي ولا الأصحاب كلهم  
ولا إمام بحمد الله مسجده  
أتاء بدعة أقوام سيورثهم  
وإن أتاهم خليل ناصح لهم  
إذا أتوا رجلاً سمحاً خلأقه  
يذم بعضهم بعضاً إذا نفدت  
وهم يمتنون والإقتار شيمتهم

وتاليه ولا من فعل عثمان  
والتابعين لهم عدلاً وإحساناً  
ولا من الغر من أبناء موسانا<sup>(1)</sup>  
من بعد مشربهم فقراً وخذلانا  
عضوا أناملهم ظلماً وعدواناً  
ولم يروا مغرجاً جفوه مجانا  
أوراقهم يحسبون الغد حرامنا  
على الكرام إذا يغطونهم كانا<sup>(2)</sup>

\* \* \*

ورد عليه عيسى بن محمد بقوله:

من البحر البسيط:

مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن

مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن

أتاي من نعم الرحمان مولانا  
أتاي من أطيب الأرزاق جوّزه  
فالأصل في كل شيء الإباحة ما  
أتاي حلسو حلال زينة وردت  
قد أجمع المسلمون اليوم قاطبة  
وليس من بعد دين ريبه وكفى

لا ينبغي كفرها سرّاً وإعلانا  
دين قويم عن المختار وإفانا  
لم يظهر المنع تحقيقاً وإتقانا  
في مثله آية نصاً وتبياناً  
على إباحته بيضاً وسودانا  
بالنص نهجاً وبالإجماع برهانا

(1) حمد الله تقع في مملكة ماسنة، وهي عاصمتها أيام الشيخ أحمد بري وأولاده، وموسانا جد لعلي بن النجيب.

(2) كان وإنكان: نوع من الكؤوس صغيرة الحجم يستخدمها أهل الصحراء في شرب الشاي وهي مثل كؤوس الشاي الليبي.

لا يمتري اليوم في استحسانه أحد  
 به قضى العرف وهو من قواعدا  
 فالضيف ببهجة الخل يطربه  
 فلا يفرط فيه غير ذي عته  
 ألا فمن يجتنبه اليوم قد نزعا  
 من كان ذا همة فليلتزم أبدا  
 فهو الضيافة والإحسان أكمله  
 ومن سقى ضيفه كأساً على عجل  
 ومن يداوم على تعجيله كرمأ  
 يا صاحب الحزم لا تترك تعاطيه

إلا ذرو البخل أو من كان حيرانا  
 أصلاً إذا وافق المنهاج ميزانا<sup>(1)</sup>  
 والعرض يحصنه بالحزم إحصانا  
 غمر جهول عن الخيرات قد بانا<sup>(2)</sup>  
 ثوب المروءة والإحسان حرمانا  
 تطليع مغرجة للناس إدمانا<sup>(3)</sup>  
 من لم يُقدِّمه للأضياف قد هانا  
 فقد أصاب ولو في كأس إنكانا<sup>(4)</sup>  
 للزائرين فلا يَغْد خزاننا  
 فإنه يَقلِبُ الأعداءَ إخواننا

\*\*\*

(1) من قواعدا، أي معشر المالكية.

(2) ذي عته: ذي حمق، والغمر: من لم يجرب الأمور.

(3) تطليع مغرجة: إغلاءه.

(4) انكان وكان كأس صغير.

## الفصل السابع أُكُتِبَ الرِّسَالُ

نماذج من كتابة الرسائل والردّ عليها  
عند أطباء الصحراء



# 1

رسالة من الحاج أبي القاسم

ابن الحاج محمد بن أحمد البليلى

إلى سيدي بو عمامة بن سيدي محمد بن الحبيب

الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وسلم،

محبُّنا في الله وأعزُّ الناس عندنا السيد الفاضل، سيد أقرانه المكرَّم سيدي أبو عمامة بن سيد بن الحبيب. الكتاب إليك من عند محبك على الدوام الحاج أبي القاسم بن الحاج محمد بن أحمد البليلى. ألف سلام عليكم ورحمة الله وبركاته وعلى جملة من معك وإليك وإن سألت عن ماذا ضاع لك على يد أبناء أحمد بن محمد البوثقي لليوم ما جبروا شيئاً لأجل اليهود فلهم ولا صار عندهم شيء ولا أحد فيض شيئاً لا البشير ولا غيره وأمر الشريعة ما خاطبناه خائف عن مضيع حقهم، وهذا كثير الناس ييغون منه كما في شريف علمك، والحاج محمد بن ففة تلاقينا معه يوماً وراح وهو قاعد في جعبوب عند المرباط واليوم إن كتبتم أنتم ووالدك لأخوان البشير لعله يسلك، وأما أخوهم ما نظن يصير منه شيء هذا إذا كنتم يعني يخسرون من عند أنفسهم ونعلمك في الخلطة التي بيني وبينك ترى العقد أرسلناه لأخينا الحاج محمد إذا وجدت الذهب ذاك المراد

لأجل عليه صار الكلام.

وأن ما تيسر يكون الريش حتى نسلك، ووصيتنا على المدفعة ستة عشر وجها وغدار ستة وجوه وعمائرهم اشتريناه أنهم عندنا في غدامس. خائف أن أرسلهم لأجل ما، ثم من يحتفظ عليهم ويتوكل كما ينبغي، والثاني على نظرك في قيمتهم وتسمع يأتي عليهم بحسابكم قوب ذهب والامانة محبوب كانت تحبهم أعلمني أرسلهم على يد عب وعلمناكم على قيمتهم والبضاعة التي عندك لي والتي هي الذهب أولى لنا لأجل عليه صار الكلام وإلا ما تيسر تدفع لأخينا الحاج محمد على ذمتك يباع في الطرابلس، وبقولي أنك ما بقيت اليوم تاريخ أواسط ذي الحجة 1201هـ.

## 2

### رسالة من الأمير كاوي بن السلطان أم علي إلى الشيخ سيدي المختار بن سيدي أحمد بن سيدي أبي بكر الكنشي.

الحمد لله الذي لا يَخْذِلُ من تولى: ولا ينصر عبد منه تخلى، والصلاة والسلام على نبيّه المصطفى وعلى آله الشرفاء وأصحابه أولي العدل والوفاء وبعد، فيسلم السلطان كاوي بن السلطان أم علي وسيلته لولي أمره ومالك نفعه وضره الشيخ سيد المختار بن سيد أحمد بن سيد أبي بكر الكنشي قائلاً: سبب أشخاص البراءة «الرسالة» إلى ساحتك الفسيحة ومنارتك الرفيعة المستضيئة إعلامك أن قد بلغنا قولك البليغ وكتابك البديع، أكد لنا استقامة رأيك وعقلك ووجور علمك وفضلك، فقابلناه بما هو أهله من الترحيب والتقبيل وحسن الطاعة والتبجيل، فاستقرأناه بحسن الاستماع حتى أخذ منا بمجامع الطباع، وخضعت له الأعناق لما فيه من عجائب الأعلام ففهمنا ما فيه من التنبيه لا التهميه وقلنا متبرئين مما عسى أن يظن بنا من الموجرة على الوقيعة المعهودة التي لا نعدّها إلا من الأمور المحمودّة، فإن الرأي ما رأيت والأساس ما بنيت.

إذا قالت حزام فصّدّقوها      فإن القول ما قالت حزام

واعلم يا شيخنا ووسيلتنا إلى ربنا أن قلوبنا من التعلق بما لا ترضاه سليمة. فمعاذ الله أن تنسب إلى الأولياء من أحد منا جريمة. فلا والله ما حملنا فعلتك إلا على السداد وأنها من نتائج التوفيق والإمداد، فمن أين الدير وأعزتكَ داعية اليقين بفل سيف من خلعوا ربقة الديانة عن أعناقهم وحسبوا فلا بد المكر والبغي أحسن أطوافهم، بل أبطلنا أراجيف المشاة وهو نابر خاريف الوشاة ولقد ارتكب أبناء حماد صعباً حيث سلوا من تلقائك غضباً وظلموا لك من شدة الحقد ركباً فقد توقعوا إن لم يقلعوا من ولي المتقين حرباً لجهلهم بقدرهم وجوازهم لطورهم وأما علي بن محمد بن رحال فليس ممن يباريك في المجال بل أمره عندنا سهل وسيصلك فيه قول فصل وهو أنه لنا بمنزلة المملوك الراعي وأنت بمكانة الوالد الشفيق المراعي. ولكل منكما ما يناسب مقامه من حب، فشأن ما بين المقامين، وهيئات ما بين المحبين، ألا ترى أنه خفضت لأخمصك نفسي، أفأرفع عليك أحداً من أبناء جنسي فلقد قال رأي تشوّفت إلى ذلك ونقصت همتي أن استشرفت إلى ما هنالك، بل الحق الذي لم يشب بشائبة الشك والريب والله ولي الشهادة والغيب أنه راضٍ أن أشتري نزرًا من رضاك بحذافير الدنيا فكيف بأدايتها، فهوّن عليك أمر هذا اللئيم ولو جفا، فإن الكريم إذا قدر عفا كيف يعز من اتخذ الدنيا سناداً والشيطان ركناً وعماداً والمكوس طرفاً وتلاداً، أم كيف يهون من المعرفة إحساس بنياته، والموافقات قيد عيانه، والمخالفات معدن عدوانه، ومن كان مولاه، العزيز أعزه فلا يقدر أحد أن يهينه، هذا وقصارى أمره معنا أنا لما انتبذنا في أماكن كثيراً من أموالنا وشف جلبيه غالباً على عمالنا رأينا أن نوليها ونستر عيبها من يقوم بأمرها، فوجدناه بذلك زعيماً ماهراً في سياسته، صابراً نفسه على رعايته من غير أن نطمعه بذلك في شف غبارك ولا أن نسمن ورمه بيدارك بل إنما هو في الخسة هو وأنت في الرفعة أنت وكيف يقاس العزيز بالرفيع؟ أم كيف يبارى الظليع بالضليع؟ فما نحن سيوفك



القاطعة ورماحك القامعة، فأصِبت بنا مقاتلٌ مَنْ أردت ووالٍ بنا أولياء ربك،  
وعادِ بنا أعداء وليك. فالله ناصرُك وخاذلهم وأما لآدم والسكاكنة الذين  
أرسلت إلي في شأنهم، فقد تركتهم لك رمضاً، ونقضت يدي من غبار  
صعيدهم نفضاً، فوالله لو سألتني ما بيدي من الدولة لنزلت لك عنها،  
وخليت أمرها. فمالي لا أرضى بذلك، وفوق ما هنالك. وأنا أرجو من الله  
أن يجعلك لي حرزاً مكيئاً وحصناً حصيناً ويدفع عني بك وبذريئتك عاجلاً  
وآجلاً كل همٍّ وغمٍّ وشماتة عدو، وحسد حاسد، ومكر مكر. أبقاك الله  
لنا وأبقانا لك، ولا رمي بيننا وبينك بسهم الفراق إلا بالمواطن والمباني لا  
بالأرواح والمعاني.

هذا وإنني سائلك أمراً فلا عليك أن تتكرم به علينا وهو الرجوع إلى  
بلادك، والمباعدة محل بعادك، وأن تكون بمحل لا يُخفى علينا فيه أمرُك،  
كما كان قبل، وتعتزل الأرض المعرضة لثوران الفتن، فلقد جرّبناها ورأينا  
سكانها وأولي ولايتها من تدمكت وغيرهم يترامحون ترامح الحمر  
ويتآكلون فيما بينهم تأكل دواب البحر في اللج، وكفى في هذا المقام  
الإشارة دون طول العبارة.

والسلام.

## رد على الرسالة من سيدي المختار بن سيدي أحمد ابن سيدي بن بكر الكنتي

يقول الشيخ: الحمد لله الذي لا راڊ لقضائه ولا غنى عن فضله وعطائه والصلاة والسلام على من أكرمه الله بحقائق آلائه وعلى آله وصحبه وعترته وأزواجه وأبنائه، هذا وانه من عبد ربه المختار بن أحمد بن أبي بكر الكنتي إلى عيبة نصحه وكرشه ومحل محبته وأنسه سلالة الأخيار والأبرار ومعدن الجود والفخار، ومحك رحال القاصدين من جميع الديار والأمصار من أينعت شماريخ مجدهم فَعَلَتْ وَشَمَخَتْ معالم قدرهم فَجَلَّتْ، جماعة الأبناء والأحبة النصحاء ومن انضاف إليهم مَن ولاه الله جلُّ الأمور وعدّها من أبناء كردن أدام الله عزهم ورفع مجدهم أخص من الجميع القاضي الهمام الناصح لجميع الأنام الصالح بن محمد البشير والأمير كاوي ألف سلام عليكما ورحمة الله وبركاته، أما بعد فموجبه إليكم أني بليت في هذه الأيام برعاع لئام لا يفقهون خطاباً ولا يردون جواباً أعماهم الجهل والحسد وأضلّهم الهوى واللدل لا يَفُون بوعده، ولا يثبتون على عقد. قد تحزبوا تحزب الخوارج على السلف. وتألّبوا تألب النصارى على الحق فأطفأ الله جمرتهم بالرعب، وصولتهم بالغلب والسلب

فحميئ السالم وتجافيئ عن الظالم وما فعلئ ذلك غضباً لنفسي ولا عداوة لهم بل سبب ذلك أنهم أغاروا على قافلة من فقهاء المغرب من غير سبب وتجردوا لكل نهب وسلب يخبطون في ذلك خبط عشواء ويتبعون فيما هنالك التسويلات والأهواء، فلما رأيت ما هنالك، وتبيئ لي أن منبع ذلك من كبيرهم حماد، أمرت أولمدن بالإغارة عليه وإهانتة ليكف عما هو عليه من الحراية، فلما أغاروا على غيره من قومه وجيرانه رددت عليهم أموالهم حتى الحبال كما سيخبرهم به. الوارد عليكم فلما رجعنا من ناحية تنبكت بعد الإغارة على بنيه تعرض بعض قومه مستشفعين في رد أبله فرددتها عليهم بعدما أخذت عليهم العهود والمواثيق على الكف والأخذ على أيدي أبنائهم وسفهائهم فلم يفوا بشيء من ذلك بل قال عامة سفهائهم لا قوة لي ولا عون سوى أولمدن وأنهم متى ذهبوا ورجعوا إلى أهليهم فعلوا ما سؤلت لهم أنفسهم وزينته شياطينهم وتعاقدوا على ذلك فلما حققت ذلك بعثت إلى من بعثت إليه من كناتة لأريهم أنهم لا قوة لهم على ما هموا به وسولته أنفسهم فلما اجتمعوا على إذ بعركل انتصر إذ بعرار الحجل. فكففت الناس عنهم بند القدرة عليهم رجاء ثواب الله العظيم وتخرجاً عن أخذ أموالهم وسفك دمائهم فجاءني من كان يزعم التحزب منهم يتلطف ويدفع بالراج فقبلت ذلك منهم على أن يكفوا على الواردين والمسافرين ويراجعوا ما كانوا عليه من المسكنة وترك الحراية فتحملوا ذلك والتزموا ما هنالك وإنما كررت طلب الخير منهم مع جنياتهم وعدم وفائهم أخذاً للحجة عليهم وليكون ذلك معذرة إلى الله تعالى يوم القيامة؟ ولقد ورد علي كتاب من بعض صلحائهم أنهم نكثوا أيضاً في الرابعة لأن جميع من ينسب إلى الصلاح منهم معه حبلاً ومودة ومناصحة وقليل ملهم، ومن سواهم متعصب ما لم يخف فإذا خيفوا تبرأ بعضهم من بعض واعلموا أن كل تشاين وكل تكنكنت وأكلاد البحر غزوا لآدم إلى آخر إملاء الواقعة ثم قال: «فلا تسمعوا قول واش ولا ساع

بخداع فإن القوم قد غشت قلوبهم ظلمات الفتنة، والهوى والحسد والمكر ولا يحقيق المكر السيء إلا بأهله» وقد استحلوا الكذب والبهتان جرأة على الله تعالى وجعلوا الظلم رباً ومفخراً مع ضعفهم وأصفق على ذلك عربهم وعجمهم وأشدّهم في ذلك من يدّعي العلم زيغاً وسفهاً وغيّرة بالله وجهلاً بأحكام الله وسنة رسول الله. قال تعالى «الا لعنة الله على الظالمين» وقال «ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون» وقال «أنا اعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها» وقال «وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون». وقال صلى الله عليه وسلم «الظالم أحق أن يحمل عليه» وقال «رحم الله عبداً كان لأخيه قبله مظلمة من عرض أو مال فأتاه فتحلله قبل أن يأتي يوم القيامة وليس عنده دينار ولا درهم» وقال «من اقتطع حق امرئ مسلم أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة» قال رجل: ولو كان شيئاً يسيراً يا رسول الله؟ قال «ولو كان قضيباً من أراك» وقال «أوحى الله إليّ يا أخا المرسلين أنذر قومك فلا يدخلون بيتاً من بيوتي وعند أحد منهم مظلمة من عبادي وعند أحد منهم مظلمة لعبادي فإني ألعنه ما دام يصلّي بين يدي حتى يرد تلك المظلمة إلى أهلها» وقال الشاعر:

ولو بقي جبل يوماً على جبل لاندك منه أعاليه وأسفله

وفي المثل: «من طال عدوانه زال سلطانه»، وقال معاوية إنني لأستحيي أن أظلم من لا يجد عليّ ناصراً إلا الله. وقال أبو العيناء كان لي خصوم ظلمة فشكوتهم إلى أحمد بن داود فقلت له قد تظاهروا عليّ وصاروا يداً واحدة فقال: يد الله فوق أيديهم. فقلت إن لهم مكرراً. قال لا يحقيق المكر السيء إلا بأهله فقلت هم كثير قال: كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله. وقال بعض الحكماء: أذكر عند الظلم عدل الله فيك وعند القدرة قدرة الله عليك ولا يعجبك رحب الذارعين السفاك للدماء فإن له قاتلاً لا يموت، وقال النبي صلى الله عليه وسلم في حديث قدسي يرويه عن ربه قال: «اشتد غضبي على من ظلم من لا ناصر له غيري».

ولقد عالجت القوم أشد المعالجة لأنني عالجتهم بالإحسان إليهم فلما لم يجد أمسكت ثم عالجتهم بالأعضاء والصفح عنهم فلم يجد فعالجتهم بالتهديد مع الإمساك بعد القدرة عليهم فلما لم يجد فررت منهم لأن الفرار من ثوران الفتى واجب، قال الشاعر:

إذا شاع في أرض فساد ومنكر      وليس بها ناه مطاع وزاجر  
ففرّ ولا تقم بساحة بلدة      يموت بها عرف وتحیی المناكر  
فإن عقاب الذنب عند جفائه      يخص وإن يظهر يعمم فالمحاور

والله يعلم نيتي فيهم وفي غيرهم خير العقوبة لهم، والعفو عنهم فإنني لا أريد بالجميع إلا الإصلاح ما استطعت قال الله تعالى: «فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين» ومن ذلك القاعدة الشرعية أنه يجوز قتل الثلث لإصلاح الثلثين وكذلك العقوبة المالية إذا جرت إلى كف المعتدين كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم بتقطيع نخل بني قريظة حتى قالوا يا محمد تنهى عن الفساد في الأرض وتفسد فيها بنفسك فوقع في قلوب الناس شيء من قولهم فأنزل الله تعالى قوله: «ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله» إلى غير ذلك من القواعد الشرعية التي لا يشم رائحتها إلا سماسرة العلماء. ولذلك جعل حركات العلماء وسكناتهم كلها عبادة لأنها مبنية على حق وحقيقة بخلاف الجاهل فإن عبادته جناية لخلوها عن التحقيق إذ ربما ظن المنكر معروفاً فأمر به وظن المعروف منكراً فنهى عنه، فالكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والأحمق من أتبع نفسه وتمنى على الله الأمانة؟ وإياكم أن يختلج في قلوبكم غير هذا، فإنني بلغني أن يعني المنافقين وشيء إليكم ببعض التمويهات في إذلال حماد وبنية غرة وحسداً فلا تزكوا من جرحه الله وكذبه بقوله «يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا» فالنميمة على قسمين: سعاية، وهي ما كان إلى الأمراء على وجه الفساد في أخذ مال مسلم أو هتك حرمة، والنميمة إثم الحديث بين المتحايين لإيقاع الفرقة

والشحناء وصاحبها وهو القنات، روي أن رجلاً سعى إلى بلال بن أبي بردة برجل وكان أمير البصرة، فقال له: انصرف حتى اكشف عنك فكشف عنه فإذا هو ولد الزنا. روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ألا أنبئكم بشراركم؟ قالوا بلى: قال النمامون المفسدون الأحبة الباغون البرك العيب وقال ملعون ذو الوجهين ملعون ذو اللسانين، ملعون كل شفار ملعون كل فتات» وأما السعاية إلى السلطان فهي المهلكة الحالقة لما فيها من التغرير بالنفوس والأموال. لأنها تسلب العزيز عزه وتحك المكين عن مكانته، وللسيد عن مرتبته فكم دم أراقه سعي ساع فليثق الله ربه رجل ساعدته الأقدار، يصغي إلى سعاية ساع أو يستمع لنميمة نمام، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول: «شر الناس النمام ومصدق شر منه» روي أن رجلاً كتب إلى صاحب بن عباد بطاقة يستحثه فيها على أخذ مال يتيم وكان مالا كثيراً وأجراً فكتب على ظهر البطاقة النميمة قبيحة وإن كانت صحيحة فالميت رحمه الله والساعي لعنه الله واليتيم جبره الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وقال بعض الحكماء احذر أعداء العقول ولصوص المودات وهم السعاة والنامون إذا سرق اللصوص المتاع سرفوا هم المودات، وفي المثل: من أطاع الواشي ضيع الصديق وكل ذي نعمة محسود وكل واش كذوب، وكل منافق طعان لعان والثقة بمن لا دين له تغرير، واتهام ذي الدين حوب كبير وتصديق الكذوب زيغ وتكذيب الصدوق الحاد والدين صدق نصيحة والنفاق كذب وخديعة ومن لا أمانة له فلا تأمنه ومن لا نصيحة له فلا تستأمنه ومن سل سيف البغي قتل به، ومن حفر لأخيه بئراً وقع فيها، ومن داهى في الحق هان ومن لم يتدبر عواقب الأمور لان، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ومن يتوكل على غيره ضاع كسبه.

روي أن معاوية كلّم الأحنف بن قيس في شيء بلغه عنه، فأنكره

الأحنف فقال معاوية: بلغه عنك الثقة فقال له الأحنف: إن الثقة لا يبلغ، وكان الفضيل بن سهل يكره السعاية وإذا أتاه ساع قال له إن صدقتنا أبغضناك وإن كذبتنا عاقبناك وإن استقلتنا أفلناك. وكتب في جواب كتاب ساع نحن نرى قبول السعاية أشد من السعاية لأن السعاية دلالة والقبول إجازة وليحسن من دل على شيء وأخبره عمن قبله وأجازه، فاتقوا الساعي فإنه لو كان في سعائته صادقاً لكان في صدقه لئيماً إذ لم يحفظ الحرمة ولم يستر العورة، وقال المأمون النميمة لا تتصل بمودة إلا أفسدتها ولا عداوة إلا جددتها ولا جماعة إلا بددتها، ثم لا بد لمن عرف بها ونسب إليها أن يجتنب وتخاف معرفته ولا يوثق به في أمر.

قال الشاعر:

من ثم في الناس لم تؤمن عقاربه      على الصديق ولم تؤمن أفاعيه  
كالسيل بالليل لا يدري به أحد      من أين جاء ولا من أين يأتيه  
الويل للعمد منه كيف ينقضه      والويل للود منه كيف يفنيه  
واعلم يا كاوي إني وفيت لك بما عاهدتك عليه من ترك الدعاء على  
ابن رحال زعماً منك أنك تكفه وتتولى منانه، وانه قد اشتغل بالخداع  
والتحليق في سلب الساكينة ولآدم النازلين علينا والله يخذله ويجعل كيده  
في نحره إذ تركهم لنا من هو أولى منه بهم وأقوى منه وأشد شركة من  
يغربه من يغرمه ويأخذ على رقبتة المكوس وهم أولاد امبارك، فإن وفيت  
بما قلت فأنت وذاك وإن نكثت رفعنا أمرنا إلى الله فيما عودنا إليه وعلى  
غيره من النصر والظفر فإني لست بعاجز ولا كسلان ولا من تعود الضيم  
وخفارة الجار والمستجير فاستكن لذلك قال الشاعر:

إن الكريم يحلم ما لم      يرين من أجاره قد أهينا  
واعلموا أن حفظ الجار وحماية الذمار أمر واجب على الكرام دون  
اللثام وكانت العرب ترى ذلك ديناً تدعو إليه، وحقاً واجباً تحافظ عليه.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أن حلف الجاهلية لم يزد الإسلام إلا تأكيداً قال الله تعالى «واوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولاً» وكان أبو سفيان بن حرب إذا نزل به جار يقول: يا هذا إنك اخترتني جاراً، واخترت داري داراً فجناية يدك علي دونك وإن جنت عليك يد فاحتكم احتكام الصبي في أهله، وكان الفرزدق بعبير أبيه غالب بن صعصعة. وفي ذلك المعنى يقول الشاعر:

هم يمنعون الجار حتى كأنما لجارهم بين السماكين منزل  
ورأى أن رجلاً شيعياً كان يسعى في فساد الدولة العباسية فجعل المهدي لمن دل عليه أو أتى به ألف درهم فأخذه رجل ببغداد فيئس من نفسه فمر به على معن، فقال يا أبا الوليد فأخذه منه كرهاً وأردفه بعضهم خلفه فذهب الرجل فأخبر أمير المؤمنين المهدي بالقصة فأرسل خلفه من يحضره، فأحضره فلما دخل عليه قال يا معن أتجير علي؟ فقال نعم: يا أمير المؤمنين قتلت في طاعتك يوماً واحداً خمسة آلاف فما أملك أن أجير رجلاً واحداً استجارني، فاستحى المهدي وأطرق قليلاً ثم رفع رأسه وقال: قد أجرتنا من أجرت يا أبا الوليد. قال: إن رأى أمير المؤمنين أن يحبوا جاره فيكون قد أحياه وأغناه، قال قد أمرت له بخمسين ألف درهم، قال معن ينبغي أن تكون صلات الخلفاء على قدر جنایات الرعية وإن ذنب الرجل عظيم قال الخليفة قد أمرت له بمائة ألف درهم، فرجع معن إلى منزله ودعا الرجل ودفع إليه المال ووعظه وقال له لا تتعرض لمساخط الخلفاء. وروى أن الجراد سقط قريباً من بيت ابن أبي حنبل فجاء الحي فقالوا: نريد جارك فقال أما إذ جعلتموه جاري فوالله لا تصلون إليه، فسُمي مجير الجراد، وهؤلاء القوم قد استجاروا بالله أولاً ثم بي وبك ثانياً. وقد خفر جوارنا رعا من الناس قد تحزبوا حسداً وبغياً، وقد تحزبوا على ذلك تحزب الخشاش، وتألّبوا تألّب الفراش أن عاينوا خوفاً إذا بعروا وأن أنسوا أمنا اشمخروا ليس لعائهم دواء إلا التنكيل الممض والتشريد الملط:



قال الشاعر:

لكل داءِ دَوَاءٌ يَسْتَطِيبُ بِهِ إِلَّا عَدَاوَةَ مَنْ عَادَاكَ عَنْ حَسَدٍ  
وأنتم الأعوان والأخوان والأبناء وهم الأضداد والشناة والأعداء.

وقال الشاعر:

إذا كان أعداء عليّ تناصروا فما ذاك إلّا من تخاذل أخوان  
فإن أظهرتم لهم ذباب السيف كفوا عن الحيف فرجعت كل خارجة  
إلى جحرها وأقرت بعجزها وقدرها قد علم كل أناس مشربهم فهربوا  
مهربهم وإلّا فسيجري ما أرى إلى هزاهز يشيب لهولها الرضيع ويتمطع  
بسببها الصريع فالخرق يرقع قبل الاتساع والشيء إنما يحفظ قبل الضياع  
واللثيم لا يكف إلّا بالإهانة والكريم يكفّ بالإجلال والملاينة وليكن في  
علمك يا كاوي أنه لا لكلب غيرك ينبح عن غنمي الذئاب وقد تكاؤوا من  
كل جانب حسداً وعدواناً وبغياً وطغياناً.

قال الشاعر:

تعدو الذئاب على من لا كلاب له وتتقي مريط المستأسد الضاري  
وأرجو من الله تعالى أن يشتت شملهم، ويفرق جمعهم، قال الرسول  
صلى الله عليه وسلم: «الحسود لا يسود»، وقال: «قاتل الله الحسد ما  
أعدله بدأ بصاحبه فقتله»، وقال: «استعينوا على أموركم بالكتمان فإن كل  
ذي نعمة محسود»، وقال: «الحاسد مغتاذ على من لا ذنب له»، وفي  
الحِكْم: «الحسود غضبان على القدر». روي أن رجلاً من البادية دخل  
على المعتصم وقربه وجعله نديمه فنفس وزير الخليفة البدوي ذلك  
فحسده وقال في نفسه إن لم أقتل هذا البدوي أخذ بقلب أمير المؤمنين  
حتى يبعثني منه، فصار يتلطف بالبدوي حتى أتى به منزله، فطبخ له طعاماً  
فأكثر فيه من الثوم ثم ذهب إلى الأمير في فوره، فقال: إن هذا البدوي  
يزعم أنك بخر ودليل ذلك أنه إذا دخل عليك جعل طرف رداءه على فمه

مخافة أن يشم الأمير منه رائحة الثوم، فلما رأى الأمير منه ذلك، قال في نفسه: لقد صدقني الوزير فكتب الأمير إلى بعض عماله كتاباً يقول فيه، إذا وصلك حامل كتابي هذا فاضرب عنقه، ثم دعا بالبدوي فدفّع إليه الكتاب، وقال امض به إلى فلان واثنتي بالجواب، فأخذ البدوي الكتاب وخرج فلما كان خارج باب الأمير لقيه الوزير فقال: إلى أين تريد؟ قال وجهني الأمير بكتاب إلى عامله الفلاني. فقال الوزير في نفسه: إن هذا البدوي يحصل له من هذا التقليد مال كثير، فقال: يا بدوي ما تقول فيمن يريحك مما يلحقك من التعب في سفرك ويعطيك ألفي دينار؟ قال: البدوي أنت الكبير وأنت الحكيم ورأيي تبع لرأيك فناوله ألفين وتناول الكتاب من يده فركب الوزير من ساعته وسار بالكتاب. فلما قرأ العامل الكتاب أمر بضرب عنق الوزير، فبعد أيام تفكر الأمير في أمر البدوي فتعجب من ذلك وأمر بإحضار البدوي فقال: ما شأنك يا بدوي؟ فأخبره بالقصة التي اتفقت له مع الوزير، فقال له الخليفة: أقلت فيّ أنني أبخر؟ فقال: معاذ الله يا أمير المؤمنين أن أتحدث بما ليس لي به علم، وإنما كان ذلك منه مكرّاً وخداعاً، وقصّ عليه إدخاله إياه منزله، ثم خلع على البدوي واتخذته وزيراً، وفي مثل هذا يقول الشاعر:

أيا حاسداً لي على نعمة	أتدري على من أسأت الأدب
أسأت على الله في حكمه	لأنك لم ترض لي ما وهب
فجازاك أن زادني في العطا	وأغلق دونك باب الطلب

وقال غيره:

أصبر على قتل الحسو	د فان صبرك قاتله
--------------------	------------------

وقال غيره:

يا طالب العيش في أمن وفي دعة	رغداً بلا قتر صفواً بلا أرق
خلّص فؤادك من غلٍّ ومن حسد	فالغلّ في القلب مثل الغلّ في العنق

وقال الشاعر في آل المهلب:

آل المَهْلَب قوم إن مَدَحْتَهُمْ      كانوا الأَكَارِمَ آبَاءً وأَجْدَاداً  
إن العرانيين تلقاها مُحَسَّدَةً      ولا ترى للئام الناس حساداً

وقال منصور الفقيه:

منافسة الفتى فيما يزول      على نقصان همته دليل  
ومختار القليل أقل منه      وكل فوائد الدنيا قليل

ولما حسد أخوة يوسف، عليه السلام آل أمره إلى ما آل إليه من الملك الشامخ والعزّ الباذخ والاصطفاء والنبوة، فساقهم الله إليه من كنعان أذلة عالة ليحكم فيهم بما شاء وكيف شاء فامتحنهم ثم عفى عنهم عندما أقروا له بالفضل واعترفوا بالخطأ فقالوا: تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين، ولما رأيت القوم لم يكفوا بالإحسان إليهم والحلم بعد الجرم عاملتهم بطرف من الجهل فكان ذلك أرْدً لصولتهم وأكْسَرَ لشوكتهم معتمداً على الله تعالى ومستنداً إلى قوله تعالى «فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم» فلم أعتدِ بالمثل تغليياً لجانب العفو، وقال الله تعالى لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا مَنْ ظلم. قال القاضي أبو محمد الحسن بن عبد الرحمان بن خلاد ليس الحلم في كل المواطن محموداً كما أنه ليس الجهل في كل الأحوال مذموماً.

وأنشدوا في المعنى:

أبا حَسَنِ ما أَقْبَحَ الجهْلَ بالفتى      وَالْحِلْمُ في بعض الأَحْيَانِ أَقْبَحُ  
إذا كان حلم المرء عون عدوة      عليه فإن الجهل أغنى وأروح  
وفي الحلم ضَعْفٌ والعقوبةُ قوَّةٌ      إذا كنت تخشى كَيْدَ مَنْ عنه تصفح

وقال آخر:

لن يدركَ المجدَ أقوامٌ وإن كرموا      حتى يذلوا وإن عَزَّوا لأقوام  
فيصفحوا فترى الألوان مصفرةً      لا صفحَ ذل ولكن صفحَ أحلام

وإن دعا الجار لبوا عند دعوته في النائبات باسراج والجمام  
وقال النابغة الجعدي وهو مما أنشده النبي صلى الله عليه وسلم  
فاستحسنه:

ولا خير في حلم إذا لم يكن له  
إذا كنت بين الحلم والجهل قائماً  
ولكن إذا أنصفت من ليس مُنصِفاً  
إذا جاءني من يسئل الجهل عامداً  
ولم أُعطِه إياه إلا لأنه  
وقال آخر:

أولئك قومي بارك الله فيهم  
وقال المفضل الضبي:

تعفو الملوك عن العظيـم  
ولقد تعاقب باليسير  
إلا ليعرف حلمها  
م من الذنوب لعضلها  
وليس ذاك لجهلها  
ويخاف شدة نكلها

هذا الزمان أكثر أهله: هدامون على كل بناء، رمادون على كل شواء:  
قال الشاعر:

متى يبلغ النيان يوماً تمامه  
واعلموا أيها الإخوان في الله أنه لا أحد بعد الله أثق به في الحديث  
غيركم فجدوا في رد هذه الفتنة قبل استحكامها، واجتهدوا في إطفاء هذه  
الجمرة قبل اضطرارها، فإن دُفعكم إياها أحمدُ لِنارِها وأدفعُ لشنارها،  
واجعلوا ذلك لله والإخاء فيه لكي تعاونوا على ذلك فإنه ما تصعب أمر  
أنت داخله بربك ولا سهل أمر أنت داخله بنفسك ولذلك قال الله تعالى  
لنبيّه «وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي  
من لدنك سلطاناً نصيراً» وإن القوم متوجهون إليكم بالرشا لهدم ما بنى الله

فياكم وقبولها فتدلوني بها وهي فانية والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخيرٌ أملاً فإن اخترتموني عن كل شيء كنت لكم خلفاً من كل شيء فكأنني المؤنة وأنا لني المعونة قال الرسول صلى الله عليه وسلم في حديث قدسي يرويه عن ربه «لا يعتمد علي عبد من عبادي أعلم ذلك من نيته فيكيده أهل السموات والأرض إلا جعلت له من ذلك فَرْجاً وَمَخْرَجاً وإنما دعوتكم لهذه النازلة مراعاةً لقوله تعالى و«تعاونوا على البر والتقوى». وقوله صلى الله عليه وسلم «المرء كثير بأخيه» وقوله «أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» فقال رجل يا رسول الله أنصره مظلوماً فكيف أنصره ظالماً؟ قال امنعه من الظلم واحجزه عنه فذاك نَصْرُهُ. وفي رواية فليأخذ على يديه.

ومن هذا النمط قول الشاعر:

وَإِذَا يَصِيبُكَ وَالْحَوَادِثُ جَمَّةٌ      حَدَّثَ حَدَاكَ إِلَى أَخِيكَ الْأَوْثَقِ

وقال آخر:

أَخْوَكَ الَّذِي إِنْ سَرَّكَ الْأَمْرُ سَرَهُ      وَإِنْ نَابَ خَطْبُ ظِلٍّ وَهُوَ حَزِينُ  
يُقَرِّبُ مَنْ قَرَّبْتَ مِنْ ذِي مَوَدَّةٍ      وَيُقْصِي الَّذِي أَقْصَيْتَهُ وَيُهِينُ

وقال علي بن أبي الحوري: سمعت أبا سليمان الداراني يقول: ليس من علامة الحب أن تحب من يُبَغِضُهُ حبيبك. وقيل لخالد بن صفوان: أَيْ إِخْوَانُكَ أَعْجَبُ إِلَيْكَ؟ قال: الذي يغفر زَلَّتِي ويقبل عللي وَيُبَلِّغُنِي فِي النَّائِبَاتِ أَمْلِي.

روي أَنَّ قوماً تذاكروا الأخوة في مجلس عبدالملك بن مروان فذكر كل ما عنده، وهو ساكت، فقالوا له: ما حقيقة الأخوة عندك يا أمير المؤمنين؟

إِنْ أَخَاكَ الْمَصَاحِبُ فِي الْمَرِّ      وَأَيْنَ الْمَصَاحِبُ فِي الْمَرِّ أَيْنَا  
الَّذِي إِنْ حَضَرَتْ وَأَنْتَ فِي الْحَيِّ      وَإِنْ غَبَتْ كَانَ أَدْنَى وَعَيْنَا

وعن جعفر بن محمد بن علي قال:

أوصاني أبي فقال: يا بني لا تصحب خمسةً ولا تجالسهم، لا تصحب فاسقاً، فإنه بائعك بأكلةٍ فما دونها، قلت يا أبت فما دونها؟ قال الطمع فيها فلا ينالها، قلت يا أبت فمن الثاني؟ قال لا تصحب نجباً فإنه يقطعك أحوج ما تكون إليه، قلت يا أبت فمن الثالث؟ قال لا تصحب كذاباً فإنه بمنزلة السراب يقرب لك البعيد ويبعد لك القريب، قلت يا أبت فمن الرابع؟ قال لا تصحب أحمق فإنه يريد أن ينفعك فيضرك، قلت يا أبت فمن الخامس؟ قال لا تصحب قاطع رحم فإنني وجدته ملعوناً في ثلاثة مواضع من كتاب الله في الذين كفروا وفي البقرة والرعد، والمعتبر في الأخوة أخوة الدين لا أخوة الطين. قال الله تعالى «إنما المؤمنون أخوة» وفي المثل: «الصديق الموافق خير من الشقيق المنافق». وقالوا جعل الله في الصديق البار عوضاً عن الرحم قال الشاعر:

وكم من بعيد صادق الود مخلص	وذي رحم القرابة قاطع
تمسك بجبل المطمع الوصل واحترس	وصال سواه من قريب وشاسع

وقال الشاعر:

أخو ثقة يسرُّ بحسن حالي	وإن لم تُذِنِني منه قرابة
أحبُّ إليَّ من ألفي قريب	بنات صدورهم فيها حرايه

وقال آخر:

كيف أجفو من غِد تعرّفت منه	خلفاً بارعاً ووداً كريماً
لم أقايس به الإخلاء إلّا	كان عند حميدهم مذموماً

واعلم يا كاوي أنك عرّفتني مواعد حسنة فإن وَفِيتَ بها فقد أمطر فرنك وذهب حزنك وهي قولك كل من جاء من أهل القبلة فهو نازل وقد أعطيته لي فلا ينازع فيه منازع الثاني إعطاؤك الموائيق لي أنك لا تخالف لي أمراً ما عشت، الثالث أنك لا تبدلني بمال، ولو بلغ من البحر المالح

إلى ملك الدنيا تريد العثماني وقد حفظتها عليك فأحصيتها والناس مقبلون عليك على أن تنفض جميع ذلك وهم منافقون كَذَبَ فإياك أن تطيعهم في ذرة من ذلك فيكون برُّك حُلْباً، وعهدك خلفاً، وأنا في جميع ذلك متوكل على الله وكفى به وكيلاً ثم إن العاقل الكريم يفتح به نقض العهد ولو كان المعاهد كافراً. وروي أن سبب الوفاء العقل الوافر والعرض الكامل، وعن عامر بن قيس قال: إذا عقلك عَقْلُكَ عَمَّا لا ينبغي فأنت عاقل وإن العلماء مثلوا العقل فجعلوا له جوارح كجوارح الجسد ففمه وعينه البراءة من الحقد والحسد، وأذنه الفهم، ولسانه الصدق، وقلبه صحة النية، ويده الرحمة، وقدمه السلامة من الغش، وسلطانه العدل، ومركبه الوفاء، وسلاحه لين الكلام، وسيفه الرضا، ورمحه المصالحة، وسهمه التحبب، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الْعِدَّةُ دين، وويلُ لمن وَعَدَ ثُمَّ أَخْلَفَ» قالها ثلاثاً. وعن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا تمار أتحاك ولا تمازحه ولا تَعِدْهُ موعداً تُخْلِفُهُ فيكون قطيعة بينك وبينه». ومن حديث علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ تَدُومَ لَهُ مودةُ أخيه فلا يَعِدْهُ موعداً فيخلفه» ومن حديث أنس بن مالك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «تحميلوا إلى بست أتحمل لكم بالجنة» قالوا: وما هي يا رسول الله؟ «إذا حَدَّثَ أَحَدُكُمْ فلا يكذب، وإذا وعد فلا يخلف وإذا أُوْتِمِنَ فلا يَخُنْ وغضوا أبصاركم واحفظوا فروجكم وكفوا أيديكم». ومن حديث علي بن موسى الرضا قال حدثني أبي عن أبيه عن آبائه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: من عامل الناس ولم يظلمهم وحدثهم فلم يكذبهم ووعدهم فلم يخلفهم فهو مَنْ كُمَلَتْ مروءته وظهرت عدالته، ووجبت أخوته وحرِّمَتْ غيبته. ومن حديث الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ثلاث من كنَّ فيه: فهو منافق، وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم: «مَنْ إذا حَدَّثَ كَذَبَ، وإذا وعد أخلف وإذا أُوْتِمِنَ خان».

ونظم بعضهم في المعنى فقال:

وإذا منعتُ منعتُ منعاً بيناً      وأرحتُ من طول العناء الراغباً  
وإذا وعدتُ الوعد كنتُ كغارم      ديناً أقرُّ به وأحضرُ كاتباً  
حتى أنقذته على ما قلته      وكفى عليك به لنفسك طالباً

ولما مدح الله نبياً من أنبيائه قال «إنه صادق الوعد» وكان يقال آفة المروءة تخلف الوعد، وكان إبراهيم بن يسار أوفى خلف الله بعدة قال له انسان مرة انتظرني حتى آتيك، فقال إلي أما أن تجيء فلا، ولكن أنتظرك إلى العشاء مخافة أن يخلف الوعد. روي أن عبد الله بزعم وعد رجلاً أن يزوجه ابنته ثم تمادى به الأمر حتى حضره الموت فبعث إليه فزوجه، وقال كرهت أن ألقى الله بثلاث النفاق وقال بعض الحكماء: المواعيد سحاب والمطر الوفاء بها، وكان عليّ يقول خير المقال ما صدقه الفعال، وقال: «ليس في البرق اللامع مستمتع لمن يخوض الظلمة ما أحسن المقال إذا صدقه الفعال».

وقد أنشدوا فقالوا:

يقول فيحسن القول ابن ليلي      ويفعل فوق أحسن ما يقول

وقال أحنف بن قيس خير الصنائع إنجاز وعد، ووفاء بعهد وقال يحيى بن خالد: المواعيد شبكة من شبك الكرام يصطادون بها محامد الأحرار، وقال المثنى بن حارثة لأن أموت عطشاً أحب إليّ من أن أخلف وعدا وقال عبد الملك بن مروان لبنيه: لا تعدوا الناس بما لا تنالهُ أيديكم فإن اليأس إحدى راحتين، وقال جعفر: إن محمد اعتذر من منع أجمل من وعد مطول، وكان يقول: وعد الكريم نفذ وتعجيل، ووعد اللئيم منع وتسويق، وروي عن بعض الحكماء أنه قال: الوعد نافلة والانجاز فريضة فلا تفرض على نفسك فريضة وعد لا تنوي إنجازها، فيعود ما طلبت من المحمودة مذمة، ومن المصافاة ملاحاة، وعن الحسن فضل الفعال على



الكلام مكرمة. وفضل الكلام على الفعال عار.

وأنشدوا:

إن المَعْلَى بن أيوب له شرفٌ      ما زال يرفعُ أحياناً فترتفعُ  
إن قال افعل شيئاً فهو فاعله      أو قال: لا. لم يكن في غيرها طمع  
واعلموا أنه لا أقيم على الضيم.

قال الشاعر:

ولا يقيم بدار الذلِّ يالفها      إلا الاذلان عبد الحي والوتد  
هذا على الهون مربوط برمته      وذا يُشجُّ فلا يرثي له أحد  
وقال صالح بن عبد القدوس:

وإذ رأيت الرزق عَزَّ ببلدةٍ      وَخَشِيتُ فيها أن يضيقَ المَذْهَبُ  
فارحل فأرض الله واسعةً الفضا      طولاً وعرضاً شرقها والمغرب

وقال غيره:

بلوئمتني أن بعث بالرخيص منزلي      ولم يعلموا جارا هناك يُتَغَصُّ  
فقبلت كفوا السلام فإنما      بجيرانها تغلو الديار وترخُصُ

وقال الله تعالى «ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة». وقال صلى الله عليه وسلم: «الهجرة لا تنقطع إلى يوم القيامة» وليس بين هذا وبين قوله صلى الله عليه وسلم «لا هجرة بعد الفتح» تناقض. فقد قال ابن الصلاح معناه لا هجرة واجبة على أصحابه حينئذ لتغلبهم على الكفرة وأمنهم الفتنة كما قال الله لهم «قاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله» فقد وقع ذلك في آخر دولته صلى الله عليه وسلم وبتمام دولة الشيخين فإذا ثارت الفتنة وجبت الهجرة كما أخبر بذلك الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم تعالى المسؤول في إنجاز السؤل وبلوغ المأمول وهو حسبنا ونعم الوكيل والسلام عليكم لا يحول ولا يزول.





